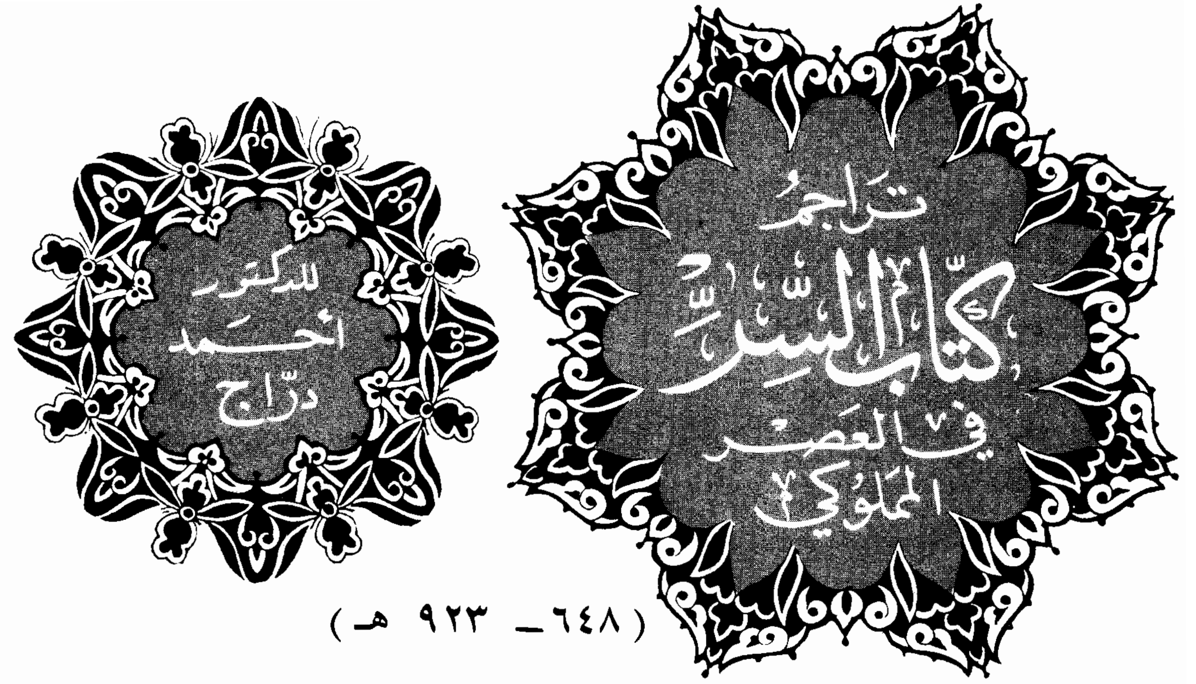


(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ)

في بحث سابق عرفنا أن كاتب السِّر هو اللقب الذي أصبح يعرف به بصفة دائمة صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية منذ أوائل عصر المماليك البحرية ، وعلى وجه التخصيص منذ بداية عهد السلطان المملوكي المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) .

ولما كانت الدولة المملوكية تشتمل فيما عدا مّصر على تسع نيابات (أو ممالك) ثمانية منها بالشام والتاسعة هي نيابة الاسكندرية فقد كان يوجد في كل نيابة منها ديوان للإنشاء كان يطلق على متوليه حسب أهمية النيابة لقب كاتب السِّر ، أو صاحب ديوان الانشاء ، أو صاحب ديوان المكاتبات ، أو كاتب الإنشاء ، وهؤلاء جميعا بالنيابات التسع كانوا يتبعون لكاتب السِّر بالديار المصرية . ونظراً لانه قد شاع في العصر المملوكي اطلاق لقب « ناظرا » بدلاً من لقب « صاحب على رؤساء الدواوين فقد أصبح اللقب الرسمي لكاتب السِّر بالديار المصرية هو « ناظر دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة السلطانية »[١] .

هذا وقد تطورت في الفترة الأولى من عصر المماليك الجراكسة وظيفة كاتب السِّر بالديار المصرية من حيث علو الرتبة وازدياد الأهمية الإدارية والسياسية . فقد ارتفعت رتبته على رتبة الوزير بعد أن كان تابعاً له وأصبح متقدما عليه في قراءة القصص والكتب في حضرة السلطان ، كماأصبح هو الذي يتلقى المرسوم من السلطان شفاهاً ، وبذلك أصبح لا يطلع على أسرار

---

(١) كانت نيابة دمشق اكبر النيابات المملوكية وأهمها ولذلك كانت تنفرد دون بقية النيابات التسع بوجود ديوان انشاء بها ، وكان يطلق على صاحبه لقب كاتب السِّر بدمشق . وعلى الرغم من انه كان متساوياً في اللقب مع كاتب السِّر بالديار المصرية الا انه كان مرؤ وساً له . وفي حلب كان يوجد بها في بادىء الأمر ديوان مكاتبات كان يسمى متوليه صاحب ديوان المكاتبات بحلب ، ثم تحول ديوان المكاتبات بها منذ منتصف القرن التاسع الهجري الى ديوان انشاء واصبح متوليه يعرف بصاحب ديوان الانشاء بحلب . وفي بيانات طرابلس ، وحماه ، وصفد كان يوجد ديوان للمكاتبات كان يطلق على متوليه صاحب ديوان المكاتبات . واما النيابات الصغرى الأخرى وهي ملطية ، وغزة ، والكرك ، والاسكندرية فقد كان يوجد في كل منها كاتب للانشاء . انظر في هذا الصدد :
ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ج ١١ ، ص ٢٧ .
ـ المقريزي : الخطط ، طبعة بولاق ، ج٢ ، ص ٢٢٦ .
ـ خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، طبعة رافيس ص ٩٨ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥ .

السلطان وأسرار الدولة أحد غيره . وتبعاً لهذه الأهمية والمكانة التي اكتسبها كاتب السِّر بالديار المصرية فقد أصبحت رتبته الأولى بين أصحاب الوظائف الديوانية في الدولة المملوكية .

كما فاق نفوذه نفوذ أكبر الأمراء من مقدمي الألوف أصحاب الوظائف السيفية الكبرى بالحضرة السلطانية ، ومن ثمّ أصبح وبخاصة اذا كان ذا حظوة لدى السلطان أعظم أهل الدولة وصاحب الحل والعقد بها بعد السلطان . وهذا يتضح من اختصاصاته التي أوجزها أحد المعاصرين في قوله [وأسند اليه أمر الولايات والعزل وغالب أمور المملكة ، ثم اتسع له مجال التدبير والتصرف الى ان صار أمين المملكة ورأس أعيانها لا يضع الملك في أمر مملكته حرفاً الا على ما يخرج من حوزته بعد اطلاعه عليه] .(١)

ونظراً لهذه المكانة الكبيرة التي اكتسبها كتّاب السِّر بالديار المصرية فقد اهتم الكتاب الكثيرون من مؤرخي مصر المملوكية بالترجمة لهم ، أو ذكر قوائم أسماء من تولى منهم وظيفة كتابة السِّر .

فالمقريزي شيخ مؤرخي مصر المملوكية يذكر لنا في سياق ترجمته لكاتب السِّر فتح الدين ابن فتح الله الذي عزل من ولايته الثانية لكتابة السِّر في شوال ٨١٥ هـ(٢) أنه كتب رسالة عن كتّاب السِّر توقف فيها عند هذه الترجمة لفتح الدين بن فتح الله . وكان فتح الدين بن فتح الله حفيّاً بالمقريزي(٣) ، ومن المحتمل أن يكون المقريزي قد كتب هذه الرسالة اعترافاً منه بفضله عليه في توليته وظيفة الحسبة . فقد تولى المقريزي حسبة القاهرة ثلاث مرات فيما بين سنة ٨٠١ هـ وسنة ٨٠٧ هـ ، الا انه سرعان ما كان يعزل منها بمجرد أن كان يتولاها بسبب منافسة بدر الدين العيني له أو منافسة غيره من الطامعين في هذه الوظيفة في هذه الفترة ، وكانوا كثيرين(٤). ومن المعروف ان فتح ابن فتح الله امتدت ولايته الأولى لكتابة السِّر من جمادى الأولى ٨٠١ هـ حتى ربيع الأول ٨٠٨ هـ . وهذه الرسالة هي احدى الرسائل الصغيرة للمقريزي ، الا أنها لم تصل الينا ونرجو ان يوفق احد الباحثين في الحصول عليها يوماً ما بين شتات المخطوطات المحفوظة في المكتبات العامة والخاصة .

ومن المؤرخين الذين اهتموا بالترجمة لكتّاب السِّر وذكر قوائم أسمائهم القلقشندي وابن تغري بردي ، والخالدي ، والسيوطي . فالقلقشندي توقف في قائمته عند ذكر ولاية فتح الدين بن فتح الله لكتابة السِّر للمرة الثانية(٥) .

---

(١) عن كاتب السِّر وأهميته ورتبته في لعصر المملوكي انظر بحثنا « مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتاب السِّر والقضاة والصادر في شهر شوال ٨٧٤ هـ » ، والمنشور في مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ١٤٠٠ هـ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٨ .

(٢) عن كاتب السِّر فتح الدين بن فتح الله انظر بعدرقم ١٦ و ١٩ .

(٣) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٤) احمد دراج : الحسبة واثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ١٤ ، ص ١١٦ ، ١١٩ .

(٥) صبح الاعشى ، ج١ ، ص ٩٧ - ١٠٠ .



وابن تغري بردي توقف عند ولاية محب الدين ابن الأشقر لكتابة السِّر للمرة الثالثة من جمادى الثانية ٨٥٨ هـ حتى رجب ٨٦٣ هـ[١] . وكذلك الخالدي[٢] . وأما السيوطي فقد توقف في قائمته عند ولاية بدر الدين محمد بن مزهر لكتابة السِّر للمرة الأولى من ١٦ رمضان ٨٩٣ هـ حتى ١١ رجب ٩٠٥ هـ[٣] .

ومن المستشرقين الذين اهتموا بتراجم كتّاب السِّر المستشرق بلوشية Blochet والمستشرق فيت Wiet . فأما بلوشيه فقد نقل عن الخالدي اسماء من تولى كتابة السِّر مع الاهتمام بتحقيق السنوات المقابلة لولاية كل منهم[٤] . وأما فيت فقد قام بدارسة مفصلة لتراجم كتّاب السِّر في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ)[٥] .

غير أن هذه الدراسات ، ما كان منها للمؤرخين القدامى أو للمستشرقين لم تحط احاطة شاملة بتراجم كتّاب السّر كما لم تهتم بربطها بالتطور الأدبي وبمجريات التاريخ المصري في العصر المملوكي الا في حالات قليلة . فقد أفاض الكتّاب المعاصرون في ذكر الشروط والصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى رئاسة ديوان الإنشاء ، وعلى رأس هذه الشروط شرط الكفاءة الأدبية . فضلاً عن المهارة السياسية والمقدرة الادارية التي أصبحت أبرز الصفات التي يجب ان تتوفر فيمن يتولى هذه الوظيفة الهامة وبخاصة بعد أن علت رتبة كاتب السِّر في عصر المماليك الجراكسة وأصبح عظيم الدولة ومدبر أمورها . كما أن وظيفة كتابة السِّر أصبحت على رأس الوظائف الكبرى في الدولة التي يبذل المال في طلب ولايتها وبخاصة بعد ان فشت ظاهرة الرشوة وظاهرة البذل في تولى الوظائف في عصر المماليك الجراكسة الذي اشتدت فيه الأزمة الاقتصادية في مصر[٦] .

ويكفي أن أوضح في هذا المجال أن معيار الكفاءة الأدبية الذي كان يتطلب فيمن يشغل رئاسة ديوان الانشاء منذ تأثر بالتطور العام الذي مرّ به الأدب العربي وبخاصة منذ أواخر القرن الثامن الهجري ، أي مع بداية عصر المماليك الجراكسة على وجه التقريب . فقد شهدت هذه الفترة بداية تدهور الأدب العربي وانحطاط أساليب الكتابة وغلبة العامية على العربية الفصحى . أما الفترة السابقة على أواخر القرن الثامن الهجري فقد كانت تمثل آخر مراحل ازدهار الأدب العربي ، ولذلك وجدنا شرط

(١) النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ٧ ، ص ٣٣٨ - ٣٤٣ .

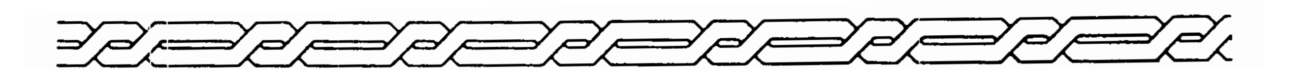
(٢) المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشا ، المخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، القسم العربي ، رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ١٤ - ١٦ .

(٣) حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٤) BLOCHET, E: Histoire d'Egypte de makrizi, Traduction française, dans Revue de l'Orient Latin. T.X, 1903- 1904, p. 266 et suiv.

(٥) WEIT, G: Les secretaires de la chancellerie en Egypte sous les mamlouks circassiens, Paris 1923.

(٦) انظر دراستنا عن مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتّاب السِّر والقضاة والصادر في شهر شوال ٨٧٤ هـ والمنشور في مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .



الكفاءة الأدبية يتوفر في جميع كتّاب السِّر في عصر المماليك البحرية ، فقد كانوا دون استثناء أحد منهم من كبار الكتّاب ومن أعلام الأدباء . وأما كتّاب السِّر في عصر المماليك الجراكسة فلم يتوفر في معظمهم شرط الكفاءة الأدبية ، وليس هذا فحسب بل انهم وصفوا على السنة الكتاب المعاصرين بالجهل .

كما تأثر معيار الكفاءة الأدبية بالنسبة لكتّاب الإنشاء بتطور كتابة الإنشاء وخاصة في عصر المماليك البحرية . فقد شهد ذلك العصر وضع المصطلحات الخاصة بجميع أنواع المكاتبات التي تصدر عن ديوان الإنشاء ، ووضع النظم التي استقر العمل بها في هذا الديوان بما يتمشى مع مكانة الدولة المملوكية في العالم الاسلامي وعلاقاتها مع الدول الاسلامية المعاصرة لها . ويمكن القول ان كتابة الإنشاء في عصر المماليك البحرية قد أصبحت صناعة لها أصولها ومصطلحاتها وأساليبها الخاصة بها . فكتابة المكاتبات والرسائل على اختلاف أنواعها أصبحت تسير وفق قواعد وقوالب معينة ومن ثمّ فقد معيار الكفاءة الأدبية في عصر المماليك الجراكسة الكثير من قيمته بعد أن استقرت في العصر السابق عليه الأصول والمصطلحات والأساليب الخاصة بأنواع المكاتبات التي تصدر عن ديوان الانشاء . وأصبح مدلول الكفاءة الأدبية في عصر المماليك الجراكسة ينحصر في مدى إلمام كاتب السِّر وكتّاب الإنشاء في ديوان الإنشاء بهذه الأصول والمصطلحات والأساليب كما وردت في كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » الذي وضعه شهاب الدين احمد بن فضل الله العمري الذي كان يشارك أباه محيي الدين أعباء كتابة السِّر زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون [١] . فقد كتب شهاب الدين أحمد هذا الكتاب ليكون دليلاً لكتّاب ديوان الإنشاء يسترشدون به في كل ما يقومون به من أعمال في الديوان . وقد ظل هذا الكتاب منذ كتابته حتى سقوط الدولة المملوكية الدستور الذي لا يحيد عنه كتّاب الإنشاء قيد أنملة [٢] .

تراجم كتّاب السرِّ في عصر المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ)

في عصر المماليك البحرية ، أي طوال مائة وستة وثلاثين عاما باشر عشرة من كتّاب السرِّ رئاسة ديوان الإنشاء ، وكانوا جميعا - كما سبق أن قلت - من أعلام الأدباء واليهم يرجع الفضل في وضع مصطلحات الإنشاء ونماذج المكاتبات والمراسلات التي استقر العمل بها في ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة المملوكية . وفضلاً عن ذلك فثمة ملاحظة أخرى يجب الاشارة اليها وهي ان عددهم في عصر المماليك البحرية يعتبر قليلاً اذا ما قورن بعدد زملائهم في عصر المماليك الجراكسة . ففي هذا العصر المملوكي الثاني الذي امتد من سنة ٧٨٤ هـ حتى سنة ٩٢٣ هـ ، أي مائة وثمانية وثلاثين سنة تولى هذه الوظيفة ستة وثلاثون كاتباً للسرِّ .

---

(١) عن محيى الدين ابن فضل الله وابنه شهاب الدين احمد انظر بعد رقم ٦ و٨ .

(٢) عن الشروط الواجب توفرها فيمن يتولى كتابة السِّر وعن مدى توخي شرط الكفاءة الأدبية في عصر المماليك الجراكسة انظر الباب الخامس من دراستنا عن ديوان الانشاء ونظم العمل به في العصور الاسلامية (تحت الطبع)

فقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء في عصر المماليك البحرية كتّاب السرِّ الآتية أسماؤهم: ـ

١ ـ فخر الدين ابراهيم بن لقمان .

٢ ـ فتح الدين بن محيى الدين بن عبد الظاهر .

٣ ـ تاج الدين أحمد بن الأثير .

٤ ـ شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله.

٥ ـ علاء الدين بن الأثير .

٦ ـ محيى الدين بن فضل الله .

٧ ـ شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود .

٨ ـ محيى الدين بن فضل الله (للمرة الثانية) .

٩ ـ علاء الدين بن محيى الدين بن فضل الله

١٠ ـ بدر الدين محمد بن محيى الدين بن فضل الله .

بل ان اثنين من هؤلاء الكتّاب توليا الوظيفة لفترة قصيرة للغاية ، وهما تاج الدين احمد بن الأثير ، وشرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود . فالأول تولاها لفترة لا تعدو الشهر الواحد ، والثاني نقله السلطان الناصر محمد بن قلاوون من كتابة سرِّ دمشق الى كتابة سرِّ الديار المصرية لغرض معين ونقل محيى الدين بن فضل الله مكانه . ولما تحقق هذا الغرض بعد بضعة أشهر أعاد كلاً منهما الى عمله الأول . ومن ثمّ يمكن القول أنه من تولى كتابة السِّرِّ في عصر المماليك البحرية لا يعدو سبعة كتّاب . ولهذا دلالته ، فما دام عنصر الكفاءة كان متوفرا في هؤلاء الكتاب فانهم كانوا موضع التقدير من السلاطين . كما أن شعورهم بالاستقرار في وظائفهم جعلهم يتفرغون لأداء مهامهم على خير وجه ، بل ويسهمون في تطوير وتقنين صناعة الانشاء حسب مقتضيات ذلك العصر وطبيعته .

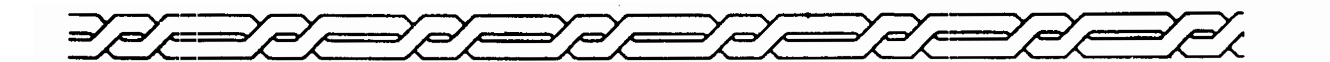
١ ـ فأولهم فخر الدين ابراهيم بن لقمان تولى صحابة ديوان الانشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب خلفاً لبهاء الدين زهير ، وبذلك يكون قد شهد نهاية الدولة الأيوبية وانتقال السلطنة الى المماليك . وظل فخر الدين يباشر هذه الوظيفة في الدولة المملوكية فترة تزيد عن الثلاثين عاما امتدت حتى اوائل سلطنة المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ) ، أي أنه باشرها في عهود ثمانية من سلاطين المماليك .

وفي هذه الفترة تولى فخر الدين الوزارة مرتين ، وكان آخر عهده فيها سنة ٦٧٩ هـ[1] . غير أنه ظل يجمع بين الوزارة وصحابة ديوان الانشاء ، بل يقال انه كان يتولى الوزارة براتب (جامكية) صاحب الديوان . ولذلك فانه بعد ان كان يُعزل من الوزارة يصبح فيقعد في ديوان الانشاء وكأنه ما تغير عليه شيء . وليس هذا بالشيء المستغرب ، فديوان الانشاء في ذلك الوقت كان مرجعه الى الوزير .

وفي أثناء ولايته لصحابة ديوان الانشاء كان محيى الدين بن عبد الظاهر رأس موقِّعي

---

(١) المقريزي ، السلوك ، تحقيق الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ٦٨٢ .



الدَّسْت بالديوان[1] ، وكانوا في هذه الفترة ثلاثة موقِّعين . ويبدو أن فخر الدين كان يترك لمحيي الدين مهمة الاشراف على شئون الديوان عندما كان يجمع بين الوزارة وصحابة الديوان ، ومن ثمّ كثيرا ما وصف محيي الدين في المصادر المعاصرة بصاحب ديوان الانشاء [2].

وكان كلاهما ، فخر الدين ومحيي الدين ، من أعلام كتّاب الانشاء . فقد تدرب فخر الدين في صناعة الانشاء ببهاء الدين زهير حتى برع في الإنشاء نظماً ونثراً وترسّلاً[3] . وأما محيي الدين فإنه سلك في هذه الصناعة طريقة القاضي الفاضل ، وكان يوصف في زمانه بأنه لسان ديوان الانشاء وشيخ اهل الترسّل[4] .

٢ ـ وبعد أن صُرف فخر الدين إبراهيم بن لقمان من صحابة ديوان الانشاء خلفه فيها فتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر . وهو أول من تلقب بكاتب السّرّ، كما كان أول من استقل بشئون ديوان الانشاء عن الوزارة[5] . وقد باشر شئون الوظيفة معظم عهد المنصور قلاوون ، وعهد ابنه الأشرف خليل حتى أدركته الوفاة وهو في صحبته بالشام سنة ٦٩١ هـ .

ويذكر عنه ابن تغري بردي أنه مهر في الإنشاء وساد في ايام المنصور قلاوون برأيه وعقله وحسن سياسته، وتقدم على والده فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم أمره ونهيه[6] . بينما يذكر المقريزي أنه لم يكن مجيداً في صناعة الانشاء كأبيه ، الا أنه دبّر ديوان الإنشاء أحسن تدبير وباشره أحسن مباشرة[7] . ويبدو أن كفاءته الادارية هذه هي التي رشحته لتولي رئاسة الديوان وكتابة السرِّ بدلاً من أبيه .

٣ ـ وبعد أن توفي فتح الدين بن محيي الدين ابن عبد الظاهر بالشام وهو في صحبة الأشرف خليل بن قلاوون تقرر عوضه في كتابة السرِّ تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي غير أن الوفاة ادركت تاج الدين بعد شهر واحد من توليته هذه الوظيفة ، فقد توفي بغزّة وهو عائد الى الديار المصرية في صحبة الأشرف خليل بن قلاوون . وكان تاج الدين بارعاً في كتابة الإنشاء ، فقد باشرها مدة طويلة بدمشق ثم بمصر في عهد الظاهر بيبرس ، وفي عهد المنصور قلاوون ، وبعد وفاته قام بأعباء كتابة السرِّ ابنه عماد الدين اسماعيل الى أن تقرر اختيار خلف له[8] .

(١) موقّعو الدست او كتّاب الدست هم طبقة الكتّاب التي تلي كاتب السرِّ ، وكانوا يعرفون ايضا بكتّاب الانشاء لانهم هم الذين كانوا يتولون مهمة الانشاء ، انظر في هذا الصدد بحثنا عن مرسوم السلطان قايتباي محلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ص ٢٦٣ ، حاشية رقم ١ .

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٩ وما يليها .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ٨ ، ص ٥٠ ـ ٥١ تحقيق الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ٦٨٢ ، ٨٠٤ .

(٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج ١ ص ٢١٢ ـ النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٨ ـ السلوك ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٧٨٧ .

(٥) انظر مقالنا عن مرسوم السلطان قايتباى ، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ص ٢٦٠ .

(٦) النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٥ .

(٧) الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٨) صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ ـ النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٤ . بنو الأثير هؤلاء غير بني الأثير الموصليين. انظر فيما بعد ترجمة كاتب السرِّ علاء الدين بن الأثير ، رقم ٥ .

٤ ـ وقد وقع اختيار الأشرف خليل بن قلاوون على شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله ، وهو أول من ولي من أسرة فضل الله كتابة السرِّ بالديار المصرية . واختيار شرف الدين لهذا المنصب انما يرجع الى شهرته الأدبية . فابن شاكر الكتبي[١] ، وابن حجر العسقلاني[٢] يذكران في ترجمته انه فاق اقرانه في صناعة الترسّل ، وانه كان كاملا في فنه ، ما كتب عن الملوك الأتراك احد مثله ، ولذلك كان السلاطين الذين قام في خدمتهم يحترمونه ويعظمونه .

وظل شرف الدين يباشر مهام كتابة السِّر بقية أيام الأشرف خليل ، وأيام أخيه الناصر محمد في سلطنته الأولى ، وأيام العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاجين ، وأيام الناصر محمد في سلطنته الثانية ؛ وأيام المظفر بيبرس الجاشنكير ، وبضعة أيام في سلطنة الناصر محمد الثالثة بعد عودته من الكرك في رمضان سنة ٧٠٩ هـ . فبعد ذلك التاريخ نقله الناصر محمد الى كتابة السرِّ بدمشق عوضا عن أخيه محيى الدين ، وقرر عوضه في كتابة السِّر بالديار المصرية علاء الدين بن الأثير . وقد استمر شرف الدين يباشر كتابة السرِّ بدمشق حتى ادركته الوفاة في شهر رمضان سنة ٧١٧ هـ[٣] .

٥ ـ وكان علاء الدين بن الأثير قد توجه صحبة الناصر محمد الى الكرك لما خلع من السلطنة للمرة الثانية في شوال سنة ٧٠٨ هـ . وفي الكرك وعده الناصر محمد بكتابة السِّر بالديار المصرية اذا ما عاد الى عرش السلطنة ، فلما عاد اليها في رمضان من السنة التالية[٤] تذكر وعده وقرر علاء الدين في كتابة السِّر بالديار المصرية عوضاً عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله . وقد بلغ علاء الدين عند الناصر محمد ما لم يبلغه غيره حتى كان يأمره أن يكتب الى نواب الشام بأشياء يأمرهم بها عن نفسه .

وعلاء الدين من بني الأثير الحلبيين الذين تعانوا الكتابة في دواوين الإنشاء بمصر والشام . وكان علاء الدين يباشر الكتابة في ديوان الانشاء بالديار المصرية عن أبيه . ولما اختير لوظيفة كتابة السرِّ برزت مواهبه وفاق أسلافه من أفراد أسرته في صناعة الترسّل . ويروى عنه انه كان له اقتدار على اصلاح اللفظة وابرازها من صورة الى صورة . وكان دقيقا للغاية في مباشرته لشئون الديوان لدرجة أنه لم يكن يخرج من الديوان كتاب الا بعد ان يتأمله ويزيد فيه بقلمه شيئا في معظم الأحيان . وقد استمر يؤدي أعمال وظيفته الى ان أصيب في ١٥ محرم ٧٢٩ هـ بمرض الفالج فأعفاه الناصر محمد من منصبه واختار محيى الدين بن فضل الله خلفاً له[٥] .

---

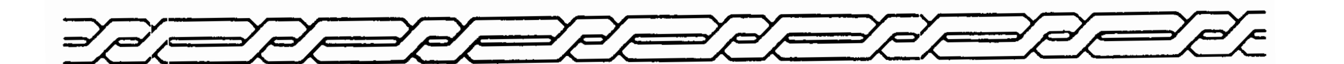
(١) فوات الوفيات ، ج ٢ ، رقم ٢٧٠ .

(٢) الدرر الكامنة

(٣) صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٤) خلع الناصر محمد من العرش للمرة الثانية في ٢٣ شوال ٧٠٨ هـ وخلفه ركن الدين بيبرس الجاشنكير حتى رمضان من السنة التالية .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ج ٣ ، رقم ٢٦٥٦ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، ج ٩ ، ص ٥٥ ، ٢٨٣ .
من افراد هذه الأسرة الذين باشروا كتابة الانشاء كمال الدين محمد بن اسماعيل بن احمد بن سعيد . وكان كمال الدين محمد أحد موقعي الدست بديوان الانشاء بالديار المصرية ، =



٦ ـ وكان محيي الدين بن فضل الله قد بدأ حياته الوظيفية كاتباً في ديوان الانشاء بدمشق سنة ٦٦١ هـ وقت ان كان أخوه شرف الدين عبد الوهاب يتولى صحابته . ثم تنقل محيى الدين في دواوين الانشاء بحمص ودمشق والقاهرة حتى استقر به الأمر في صحابة ديوان الانشاء بدمشق خلفاً لأخيه شرف الدين عبد الوهاب بعد أن عين كاتباً للسرِّ بالديار المصرية . ولما قرر الناصر محمد بعد عودته من الكرك علاء الدين ابن الأثير في هذه الوظيفة الأخيرة نقل في نفس الوقت شرف الدين عبد الوهاب الى صحابة ديوان الإنشاء بدمشق عوضا عن أخيه محيى الدين . ثم عاد محيى الدين الى صحابة ديوان الإنشاء بدمشق مرة ثانية الى أن نقله الناصر محمد الى كتابة السرِّ بالديار المصرية بعد أن عجز علاء الدين بن الأثير عن مباشرة عمله .

وجاء محيى الدين الى القاهرة ومعه أولاده شهاب الدين احمد ، وعلاء الدين علي ، وبدر الدين محمد . ونظراً لكبر سنه فقد كان ابنه الأكبر شهاب الدين احمد يشاركه في مباشرة شئون الديوان ؛ فكان هو الذي يقوم بقراءة البريد على السلطان وينفذّ المهمات السلطانية وقد ظل محيي الدين يباشر شئون وظيفته حتى قرر الناصر محمد في شعبان ٧٣٢ هـ أن يتبادل هو وكاتب السرِّ بدمشق شرف الدين بن شمس الدين بن الشهاب محمود كل منهما وظيفة الآخر[1] .

٧ ـ وشرف الدين هو أبو بكر بن محمد بن محمد بن محمود بن سليمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي فهو حفيد شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان بن فهد صاحب كتاب «حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل»، وأحد فضلاء كتاب الإنشاء في ذلك الوقت . وقد بدأ حياته بديوان الإنشاء بدمشق ، ثم نقل الى ديوان الإنشاء بالديار المصرية . وفي القاهرة تقدم على أقرانه ببلاغته وبديع كتابته وانشائه الأمر الذي رشحه لتولي صحابة ديوان الانشاء بدمشق بعد وفاة شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله . وظل شهاب الدين يقوم بأعمال صحابة ديوان الانشاء بدمشق مدة ثمانية اعوام ، وقد أدركته الوفاة سنة ٧٥٥ هـ[2] .

وتعاطى اولاده وأحفاده صناعة الإنشاء مثله ؛ فولده ابراهيم تقلّب بين دواوين الإنشاء بحلب ودمشق والقاهرة . وكانت أرفع الوظائف التي تولاها نيابة كتابة السرِّ بالديار المصرية مدة مباشرة علاء الدين بن محيى الدين بن فضل الله[3] . وقد أدركته الوفاة سنة ٧٥٩ أو سنة ٧٦٠ هـ[4] .

وأما حفيده شرف الدين أبو بكر فقد كان

= وقد ظل في وظيفته هذه حتى وفته في ذي الحجة ٧٢١ هـ (انظر الدرر الكامنة ، نفس الطبعة ، ج ٤ ، رقم ٣٥٣٩) .

(١) انظر فيما بعد رقم ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ .

(٢) ابن فهد الحلبي : حسن التوسّل الى صناعة الترسل ، القاهرة ١٣٦٨ هـ ، ص ٢ ـ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ (ومن مؤلفاته ايضا : مقامة العشاق ، ومنازل الأحباب ، أسنى المنائح في أسنى المدائح) .

(٣)انظر فيما بعد رقم ٩ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

أسعد حظاً من جده وعمه ، كما فاقهما في نظم الشعر وفي صناعة الترسّل . وقد بدأ شرف الدين حياته الوظيفية كاتباً في ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، ثم ترقى به حتى أصبح أحد كتّاب الدَّست ، وفي سنة ٧٢٩ هـ ولاه الناصر محمد كتابة السرِّ بدمشق خلفاً لمحيى الدين بن فضل الله الذي نقل الى كتابة السرِّ بالديار المصرية .

ولما عزم الناصر محمد على أداء فريضة الحج استدعاه الى القاهرة في شعبان ٧٣٢ هـ ، وعينه كاتب سرِّ الديار المصرية ونقل محيى الدين بن فضل الله مكانه بدمشق . ويبدو أن الناصر محمد كان يريد أن يصطحب معه كاتب سرّه أثناء وجوده بالحجاز ، وكان محيى الدين ابن فضل الله لا يحتمل بحكم كبر سنه مشاق الرحلة . وبعد أن حج شرف الدين مع السلطان وعاد الى القاهرة طلب منه أن يأذن له بالعودة الى وظيفته بدمشق فأعاده اليها كما رد محيى الدين الى كتابة السِّر بمصر . غير أن شرف الدين لم يلبث ان عزل من صحابة ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم هبطت به الأحوال بعد ذلك تبعا لتطور الظروف السياسية في نيابة دمشق . وقد توفي في سنة ٧٤٤ هـ[١] .

٨ - وظل محيى الدين يباشر كتابة السرِّ بالديار المصرية حتى أواخر سنة ٧٣٨ هـ ، كما كان يشاركه في أعبائها ابنه الأكبر شهاب الدين احمد . غير أنه في أواخر هذه الفترة غضب الناصر محمد علي شهاب الدين أحمد بسبب مراجعته له في أمر من الأمور[٢] ، فصرفه عن المباشرة بالديوان مع أبيه وقرر مكانه أخاه علاء الدين علي .

وفي هذه الولاية الثانية لمحيى الدين في كتابة السرِّ عظمت منزلته عند الناصر محمد لدرجة أنه لما ثقل عليه المرض واستأذنه في العودة الى دمشق ليموت بها لم يسع الناصر محمد الا السماح له بتحقيق رغبته . كما أحاطه بجميع أنواع التكريم والتعظيم ، فسمح له بالعودة الى دمشق مع بقائه في كتابه السِّر بالديار المصرية . وليس هذا فحسب وانما أصدر له توقيعا شريفا في قطع الثلثين[٣] . وأما أمر الديوان بالديار المصرية . فقد فوض الناصر محمد شئونه الى ابنه علاء الدين علي .

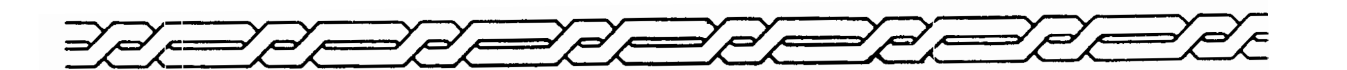
وتجهز محيى الدين ليرحل الى دمشق غير أن الأجل وافاه بالقاهرة في شهر رمضان ٧٣٨ هـ ، ثم نقل جسده الى دمشق في السنة التالية . وكان محيى الدين يجمع بين الكفاءة الأدبية والخبرة التامة بشئون وظيفته نظراً لتوليه العمل بدواوين الإنشاء فترة زمنية طويلة امتدت من سنة

---

(١) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ١ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٨ .

(٢) هذا الأمر هو مراجعته للسلطان في تعيين علم الدين بن القطب كتابة سرِّ دمشق ، وكان علم الدين بن القطب اسلمياً .

(٣) جرى العرف في الدولة المملوكية على ان كاتب السِّر بالديار المصرية يصدر بتعيينه توقيع شريف في قَطْع النصف . بقلم الثلث ، وفي هذا كان يتساوى مع كاتب السِّر بدمشق وقضاة القضاء الأربعة بالديار المصرية والشامية ، وناظر الحرمين الشريفين - انظر في هذا الصدد صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٧ .



٦٦١ هـ حتى سنة ٧٣٨ هـ.(١) .

والحديث عن محيي الدين يرتبط أشد الارتباط بالحديث عن ابنه الأكبر شهاب الدين أحمد الذي كان بمثابة نائب له في كتابة السِّر بالديار المصرية حتى تغيّر عليه الناصر محمد في أواخر سنة ٧٣٨ هـ . وقد فاق شهاب الدين أحمد جميع أفراد أسرة فضل الله في صناعة الإنشاء ، وتحقق له من الشهرةوالمكانةالأدبية ما لم يتحقق لأحد منهم على الرغم من أن القدر شاء أن يحرمه من تولي كتابة السرِّ خلفاً لوالده ، بل شاء له أن يُمتحن على يد الناصر محمد .

وكان شهاب الدين أحمد يتوقد ذكاءً كما كان يتمتع بذاكرة قوية واقتدار على النظم والنثر والمام كامل بشتى الوان المعرفة في زمانه . وفيه يقول الصفدي [الامام الفاضل البليغ المفوّه الحافظ حجّة الكتّاب ، إمام أهل الزمان ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسّلاً ، وتوسّلاً الى غايات المعالي . . . . يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق انشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة . يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز تروّي القاضي الفاضل ان يدانيه تشبيهاً . ودبّر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه، ورُويت تواقيعه وهي سجلات لحُكْمه وحِكَمه ، لا أرى ان اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه] .

وقد أضاف شهاب الدين احمد الى كفاءته الأدبية الفذّة هذه معرفة بتراجم أهل عصره ومَنْ تقدمهم ومعرفة بتواريخ الملوك . كما كان إمام وقته في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، ومعرفة الاصطرلاب والتقويم وصور الكواكب . ويكفينا في معرض التدليل على مواهبه هذه أن نذكّر القارىء بأنه مؤلف الموسوعة العلمية الضخمة (مسالك الأبصار في ممالك الأقطار) التي صارت منهلاً نهل عنه كل من جاء بعده من الكتّاب والمؤرخين ، وانه مؤلف كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) الذي أصبح المعول عليه في العمل بديوان الانشاء طوال بقية الدولة المملوكية .

وعلى الرغم من هذه الشهرة الأدبية العريضة فإن شهاب الدين أحمد كان ينقصه حسن الادراك لطبائع الملوك ، الأمر الذي أدى الى غضب الناصر محمد عليه وحرمانه من ان يخلف أباه في كتابة السرِّ بالديار المصرية مع استحقاقه لها عن أخيه علاء الدين علي . كما تعرض للمحنة على يد الناصر محمد بعد أن توفي أبوه . ففي السنة التالية لوفاة أبيه طلب من السلطان أن يأذن له بالسفر الى الشام ، غير أن السلطان كان قد نُمي اليه أنه كان قد زوّر توقيعا عنه أثناء مباشرته شئون الديوان مع أبيه ، ولذلك أمر بالقبض عليه ومصادرة أمواله والتحقيق معه . ثم انتهى الأمر بقطع يده وسجنه . وبعد ان قضى ما يقرب من سنة في السجن أمر الناصر محمد بالافراج عنه ، ثم استدعاه واستحلفه

---

(١) ابن حجر : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١١٩ ـ ٢٠٠ ـ صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٨ ـ ٩٩

على المناصحة له وعينه في كتابة سرِّ دمشق ، فسافر اليها في محرم سنة ٧٤١ هـ . ولم يكن ذلك آخر عهده بالسجن ، فقد تقلّبت به الأيام وتعرض لنقمة الناصر محمد مرة ثالثة ، وكاد يُمتحن مرة أخرى لولا أنه شفع له أخوه علاء الدين علي كاتب السرِّ بالديار المصرية ، فسمح له الناصر محمد بالعودة الى دمشق دون ان يعهد اليه بأية وظيفة . وقد مات وهو بالقدس في سنة ٧٤٩ هـ[(١)] .

٩ ـ ولما مات محيى الدين بن فضل الله في سنة ٧٣٨ هـ استقر عوضه في كتابة السرِّ بالديار المصرية ابنه علاء الدين علي الذي كان قد فوّض اليه الناصر محمد شئون الديوان لما عزم أبوه على الرحيل الى دمشق . وكان علاء الدين قد اكتسب خبرة كبيرة بصناعة الإنشاء لمشاركته لأبيه في مباشرة شئون ديوان الانشاء سواء في دمشق أو في القاهرة .

وقد استمر علاء الدين علي يباشر كتابة السِّر بالديار المصرية نيفاً وثلاثين سنة خدم فيها أحد عشر سلطانا ، وهم : الناصر محمد بقية أيامه ، وأيام ولده المنصور أبي بكر ، ثم أيام أخيه الأشرف كجك ، ثم أيام أخيه الناصر احمد . ولما خلع الناصر احمد نفسه في سنة ٧٤٣ هـ وتوجه الى الكرك ليقيم بها توجه علاء الدين علي معه وأقام عنده . ونظراً لمنزلته لدى أولاد الناصر محمد فإن الصالح اسماعيل الذي خلف أخاه الناصر احمد في السلطنة اكتفى بأن أناب أخاه بدر الدين محمد في القيام بشئون ديوان الانشاء . ولما عاد علاء الدين علي من الكرك أعاده الصالح اسماعيل الى منصبه فبقي فيه بقية ايامه في السلطنة ، ثم أيام أخيه الكامل شعبان ، ثم ايام أخيه المظفرّ حاجيّ ، ثم أيام أخيه الناصر حسن في سلطنته الثانية ، ثم أيام المنصور محمد بن حاجيّ ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين الى ان توفي في شهر رمضان سنة ٧٦٩ هـ[(٢)] .

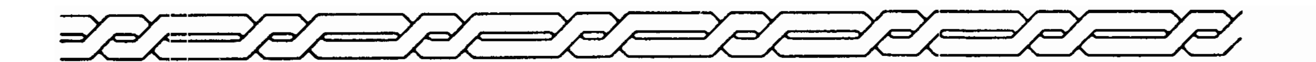
١٠ ـ وفي أواخر شهر رمضان من نفس العام خلفه أخوه بدر الدين محمد في كتابة السرِّ بالديار المصرية . وكان بدر الدين محمد قد تدرب في صناعة الانشاء واكتسب خبرة كافية بأعمال ديوان الانشاء على يد أبيه ، كما ناب عن أخيه في مباشرة شئون ديوان الانشاء فترة من الزمن كما سبق أن ذكرنا .

وكان بدر الدين محمد يبلغ من العمر زهاء أربعة وستين عاما عندما تولى كتابة السرِّ ، وقد امتد به العمر ليشهد انتقال السلطنة من المماليك البحرية الى المماليك الجراكسة بتولي أول سلاطينهم الظاهر برقوق في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ . وعلى الرغم من ان الظاهر برقوق عزله من كتابة السرِّ بعد بضعة أيام من توليه السلطنة الا أنه قُدّر له ان يتولى كتابة السرِّ مرة ثانية وثالثة في عهده . وقد توفي وهو يشغل هذه

---

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٧ ـ ٩ (نقلاً عن الصفدي)
ابن حجر : الصدر السابق ، ج ١ ، رقم ٨٢٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٩ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠



الوظيفة في شوال سنة ٧٩٦ هـ .

وفي ولايته الأولى لكتابة السرِّ باشر مهام الوظيفة بقية أيام الأشرف شعبان بن حسين ، ثم أيام ولده المنصور علي ، ثم أيام أخيه الصالح حاجيّ الى ان خُلع وخلفه الظاهر برقوق على عرش السلطنة(١) .

تراجم كتّاب السرِّ في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ)

١١ - وفي ٢ شوال ٧٨٤ هـ عزل الظاهر برقوق كاتب السِّر بدر الدين محمد وقرر عوضه موقّعه الخاص أوحد الدين عبد الواحد الحنفي التركماني الذي كانت تربطه به صلة وثيقة منذ أن كان أحد صغار الأمراء . ولم يكن قد عرف عن أوحد الدين سابق اشتغال بكتابة الانشاء أو بالأدب عامة ، غير أنه أثبت كفاءة سياسية عالية في السنتين اللتين باشر فيهما شئون ديوان الانشاء (من ٢ شوال ٧٨٤ هـ حتى ٢ ذي الحجة ٧٨٦ هـ) . فهو الذي استطاع أن ينتزع الاشراف على البريد من الدوادار الكبير ويجعله تابعاً لكاتب السِّر ، وبذلك أصبح كاتب السِّر المتصرف في أمور الدولة مع السلطان . ومما زاد في مكانة أوحد الدين صلته الوثيقة بالظاهر برقوق فكانت سائر الناس على بابه(٢) .

١٢ - وفي ٤ ذي الحجة ٧٨٦ هـ ، أي بعد يومين من وفاة أوحد الدين أعاد الظاهر برقوق بدر الدين محمد الى كتابة السِّر . وفي ولايته الثانية هذه التي استمرت حتى ١٤ صفر ٧٩٢ هـ زاد تمكن بدر الدين محمد من الظاهر برقوق حتى أصبحت الولايات والعـزل لا يتم الا بمشورته . غير أن الأحداث التي تعرض لها عرش السلطنة انتهت بالاطاحة به من هذا المنصب دون ما ذنب أو جريرة . ففي سنة ٧٩١ هـ نجحت المؤامرة التي دبرها الأمير يلبغا للاطاحة بالظاهر برقوق ولاعادة الصالح حاجيّ ابن الأشرف شعبان آخر سلاطين المماليك البحرية الى عرش السلطنة . الا أن الظاهر برقوق نجح في أوائل السنة التالية في تدبير أمر فراره من سجنه بالكرك والعودة الى عرش السلطنة . وقدخشي بدر الدين محمد ان يتهمه الظاهر برقوق بالاشتراك مع المتآمرين عليه فبادر الى الفرار الى دمشق في ١٤ صفر(٣) .

١٣ - وفي يوم فرار بدر الدين محمد قرر الظاهر برقوق عوضاً عنه علاء الدين علي بن عيسى الكركي . وكان علاء الدين وأخوه عماد قد توثقت صلتهما بالظاهر برقوق اثناء اقامته بالكرك وثبت له ولاؤهما . ولذلك ما أن عاد الظاهر برقوق الى عرش السلطنة حتى بادر باستدعائهما من الكرك وولى علاء الدين كتابة السِّر ، وولى

---

(١) عن ترجمته انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، رقم ٤١٢٣

WEIT: Les secretaires de la chancellerie en Egypte sous les mamlouks circassiens, Paris 1923, p. 1-2

- وانظر ايضا فيما بعد رقم ١٢ ، ١٤

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتـاب السّر والقضـاة ، مجلة البحث العلمي والتـراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦

(٣) ابن حجر : المصدر السابق : ج ٤ ، رقم ٤١٢٣

- WEIT: Op. Cit., No III, p. 3- 4

عماد الدين قضاء الشافعية بمصر .

وكان علاء الدين من أعلام الكتاب ، وقد حاول ان يخرج على ما ورد في كتاب التعريف لشهاب الدين احمد بن فضل الله فيما يختص بافتتاح المكاتبات ، كما حاول تعديل بعض الصيغ الخاصة بمراسيم التولية[١] ، غير أن هذا التجديد صرف النظر عنه بمجرد تركه لكتابة السِّر بوفاته في شهر شوال سنة ٧٩٣ هـ[٢] .

١٤ ـ وفي ٢٢ شوال أعاد الظاهر برقوق بدر الدين محمد الى كتابة السِّر ، وهذه هي ولايته الثالثة التي استمرت حتى وفاته بدمشق وهو في صحبة السلطان في ٢٠ شوال ٧٩٦ هـ . وكان بدر الدين محمد قد ثبتت براءته لدى الظاهر برقوق من تهمة التآمر عليه ، ولذلك عاد من دمشق الى القاهرة وأقام بداره يتحين الفرصة المناسبة للتقرب من السلطان حتى يرضى عنه . ولما أراد الظاهر برقوق السفر الى الشام سنة ٧٩٣ هـ سأله بدر الدين محمد أن يسافر في ركابه ، ويقال انه قدم له بعض المال ، فأذن له الظاهر برقوق دون ان يعهد اليه بأية وظيفة . غير انه اتفق ان مات علاء الدين على الكركي فأعاده الظاهر برقوق الى كتابة السرِّ . وهذا وبعد أن توفي بدر الدين محمد مات أخـوه حمزة فانقطع بموتهما بيت ابن فضل الله العمري[٣] .

وليس ثمة شك ان بدر الدين محمد قد اكتسب خبرة كبيرة بأعمال ديوان الانشاء في هذه الفترة الطويلة التي عمل فيها به إمّا مشاركاً لأبيه ولأخيه أو منفرداً بشئونه . وهذه الخبرة الكبيرة هي التي أهّلته للقيام بتعديل طريقة فهرسة التذاكر والدفاتر المتضمنة لمكاتبات الديوان[٤] وروداً وصدوراً ، وكذلك طريقة حفظ هذه المكاتبات . ولا يمنع من قيمة ذلك العمل ما حدث من ترك الأخذ به بعد وفاته[٥] . وليس ثمة شك ايضا ان اعادة تنظيم ديوان الانشاء قد وقع

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٦٢ ، ج ٦ ، ص ٢٢٠

(٢) صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥

ـ WEIT: Op. Cit., No IV, p. 4

(٣) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والرقم

ـ WEIT: Op. Cit, No V, p. 4- 5

(٤) التذاكر جمع تذكرة ، ومعناها هنا البطائق (جمع بطاقة) التي يلخص فيها مضمون الكتب ، وهي ما يعبر عنه في اللغة الانجليزية بكلمة card وفي اللغة الفرنسية بكلمة fiche وهي الكلمة التي نقلت الى لغتنا العامية . وكان من بين الكتّاب بديوان الانشاء كاتب مهمته كتابة التذاكر والدفاتر المضمنة لمتعلقات الديوان . ويفصّل لنا القلقشندي عمله على النحو الآتي :

ـ ان يضع في الديوان تذاكر تشتمل على مهمات الأمور التي تنتهي في ضمن الكتب ويُظن انه ربما سئل عنها او احتيج اليها فيكون استخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقير عنها في الأضابير ـ وهذه التذاكر تستخرج من الكتب الواردة والكتب الصادرة ، فانه اذا اعتمد هذا وجد السلطان جميع ما يسأل عنه حاضرا في وقفة غير متعذر عليه .

ـ أن يضع في الديوان دفتراً بألقاب الولاة وغيرهم من ذوي الخدمة وأسمائهم وترتيب مخاطبتهم

ـ أن يضع في الديوان دفتراً للحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجري في جميع المملكة .

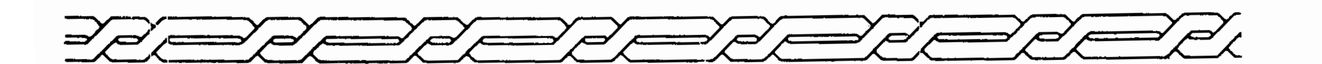
ـ ان يعمل فهرستاً للكتب الصادرة والواردة مفصلا مسانهة مشاهرة ومياومة ، ويكتب تحت كل منها اسم من ورد من جهته ، ويشير الى مضمونه اشارة تدل عليه ويسلمه بعد ذلك الى الخازن ليتولى الاحتفاظ به .

ـ ان يعمل فهرستاً للانشاءات والتقاليد والأمانات والمناشير .

ـ ان يعمل فهرستاً لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربي من الرومي والفرنجي وغيرهما متضمنا ملخص كل كتاب واسم من قام بترجمته .

(انظر صبح الاعشى، الجزء الأول ، ص ١٣٣ ـ ١٣٥)

(٥) صبح الأعشى ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ .



على كاهله بعد ان اختل أمره فيما اختل من أمور بالقلعة اثناء الفتنة التي أطاحت بالظاهر برقوق من عرش السلطنة في سنة ٧٩١ هـ . والمقريزي يذكر لنا بهذه المناسبة ان ما كان في دار الانشاء بالقلعة من أوراق أخذت وبيعت بالقنطار[١] .

وفضلاً عن ذلك فقد اكتسب بدر الدين محمد من عمله الطويل بديوان الانشاء معرفة مصطلح المكاتبات في دواوين الانشاء بالممالك الاسلامية المعاصرة لدولة المماليك . ويروي لنا القلقشندي هذه الحادثة التي تدل على خبرته بهذه الأمور ومعرفته التامة بها . فيذكر أنه في عهد الظاهر برقوق ورد رسول من الشرق وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش خان صاحب بلاد أزبك[٢] . ولما رُفعت بطاقته الى السلطان أمر نائب السلطنة بالخروج الى ملاقاته على مقربة من القاهرة فخرج في جماعة كبيرة وتلقاه بالتعظيم على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره . ثم انزله بالميدان الكبير انتظاراً لاستقبال السلطان له . فلما عرض الكتاب الذي يحمله على كاتب السِّر بدر الدين محمد وجده غير جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة ، فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك وناقشه في قضيته . فاضطر الرسول ان يقول الحقيقة وهي أنه رسول عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان ، فأُنكر عليه ذلك وانحطت رتبته عند السلطان ، وأما بدر الدين محمد فقد علا بذلك مقداره عنده .

ويعلق القلقشندي على ذلك بأن كاتب السِّر يتعين عليه ان يكون على معرفة بالكتب الواردة على الأبواب السلطانية من أهل الممالك الاسلامية المكاتبة لمملكته لأن حالها مختلف باختلاف حال مصطلح اهل البلاد وحال المكتوب عنه في رفعة القدر . وفائدة معرفة ذلك أنه اذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة ، وما هو مفتعل عليه ، ولا يخفي ما في ذلك من كبير الفائدة وعظيم النفع وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه باظهار الزيف بمحك المعرفة[٣] .

١٥ ـ وبعد أن توفي بد الدين محمد في ٢٠ شوال ٧٩٦ هـ وهو بدمشق في صحبة السلطان وقع الاختيار على بدر الدين محمود السرآئي الكلستاني ليخلفه في كتابة السِّر بالديار المصرية . والكفاءة الأدبية هي التي رشحت الكلستاني لشغل هذا المنصب . وقد لعبت المقادير دوراً في إبراز كفاءته تلك ، ففي اثناء وجود السلطان بحلب ورد عليه كتاب من تيمورلنك مكتوب باللغة الفارسية . ولم يستطع كاتب السِّر بدر الدين محمد قراءته ، فبحثوا عمن يقرأه فلم يجدوا سوى الكلستاني الذي استطاع أن يقرأه وأن يجيد في كتابة جوابه . ولذلك ما أن توفي بدر الدين محمد بدمشق حتى اختاره الظاهر برقوق ليشغل كتابة السِّر .

---

(١) الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٥ـ ٢٢٦ .

(٢) هو غياث الدين طقتمش من خاقانات القبجاق الشرقي (القبيلة الذهبية) الذي حكم من سنة ٧٧٨ هـ حتى سنة ٧٩٩ هـ . انظر : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ج ٢ ، ص ٣٦٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٢ .

ومن المفارقات العجيبة أنه على الرغم من أن السلطان لمس كفاءته ولمس مدى الحاجة اليه ، وعلى الرغم من بلاغته لا في اللغة العربية فحسب بل وفي اللغتين الفارسية والتركية كذلك ، وعلى الرغم من أنه كان رجلاً فقيراً لا يملك قوت يومه فان تعيينه في كتابة السِّر اقترن ببذل المال . فقد أصرّ برقوق على أن يأخذ منه ما تعود أن يأخذه ممن يتولى هذه الوظيفة . ولما لم يكن الكلستاني يملك من هذا المبلغ الدرهم الواحد فقد قام محبوه بدفعه لبرقوق نيابة عنه . ومن المفارقات العجيبة أيضاً أن الكلستاني الرجل الفقير ما لبث بعد أن تولى كتابة السِّر أن ترك لبس أرباب الأقدام ولبس لبس ارباب السيوف وتمنطق بالسيف . هذا ولم تطل مدة مباشرته لكتابة السِّر ، فقد توفي في ١١ جمادى الاولى سنة ٨٠١ هـ[١] .

وكان الكلستاني كثير الوقيعة فيمن سبقه من كتّاب السِّر لاقتصارهم على ما رسمه لهم شهاب الدين احمد بن فضل الله في كتابه التعريف ، ولغضبتهم على من لا يعرف ذلك المصطلح . ولذلك حاول مراراً أن يغيّر المصطلح على طريقة أهل البلاغة وأن يعتني بمراعاة المناسبة ، غير ان محاولاته هذه ذهبت سدىً أمام تصدي كبير الموقّعين بديوان الإنشاء وقتذاك وتشنيعه عليه[٢] .

١٦ ـ وخلف الكلستاني في كتابة السِّر فتح الدين بن فتح الله بن معتصم بن نفيس الاسرائيلي . وينتمي فتح الدين الى أسرة يهودية بتبريز توارث افرادها الاشتغال بمهنة الطب . وقد جاء الى القاهرة بعد أن سبقه اليها جده وعمه . وفي القاهرة اعلن اسلامه ومارس مثلهما مهنة الطب ، غير أنه تميز عنهما بتردده على مجالس العلماء . وبعد أن توفي عمه الذي كان يشغل رئاسة الأطباء في بيمارستان قلاوون رشحته مهارته في الطب لأن يخلفه في هذه الوظيفة . ومنذ ذلك الوقت توطدت صلته بالظاهر برقوق ، فلما توفي الكلستاني رشحته هذه الصلة لتولي كتابة السِّر . ولم تمنع هذه الصلة من أن يأخذ منه الظاهر برقوق ما كان قد قرره من مال على من يلي هذه الوظيفة ، بل ان ثراء فتح الدين أغراه ألا يقنع منه بما سبق أن قرره على غيره . فالمقريزي يذكر ان فتح الدين لم يتولَ كتابة السِّر الا بعد أن دفع للظاهر برقوق ما وزنه قنطاراً من العملة الذهبية[٣] وربما يكون المقريزي مبالغا في قوله هذا الا أنه على أي حال يصور لنا جانباً من الحقيقة .

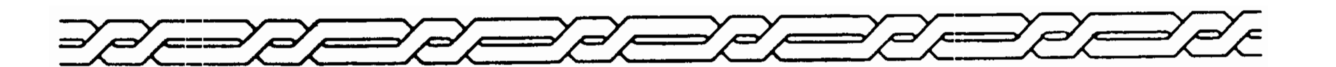
وفي الفترة الأخيرة من حياة الظاهر برقوق زاد اختصاص فتح الدين به لدرجة أنه جعله من جملة الأوصياء على أولاده وتركته . وبعد وفاة الظاهر برقوق في شوال ٨٠١ هـ استمر

---

(١) انظر مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتاب السرّ والقضاة ، مجلة البحث العلمي ، والتراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ ـ المقريزي : السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨١٦ ، ٩٢٦ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، ج ٢ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ، ص ٦٢ ، ج ٦ ، ص ٢٢٠ ، ج ١١ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥

(٣) السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ٩٣٦ ـ ٩٣٧ ـ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، رقم ٥٦٤ .



اختصاص فتح الدين بإبنه الناصر فرج ، بل انه استطاع بما عرف عنه من كفاءة سياسية وبما جُبل عليه من قدرة عملية أن يحقق في شخصه لكتابة السِّر أقصى ما تحقق لها من مكانة ورتبة ، فعلت رتبتها على رتبة الوزارة وأصبح كاتب السِّر يتقدم الوزير في مجلس السلطان ، وقد استمر ذلك لكتّاب السرِّ من بعده[1] . وهذا ما أثار حسد الحاسدين وعلى الأخص سعد الدين ابراهيم بن غراب الذي كان يجمع في يديه في ذلك الوقت معظم بقية الوظائف الكبرى في الدولة والذي كان ينافسه في الانفراد بالمكانة الأولى لدى السلطان ، ونجح سعد الدين في أن يشي به عند الناصرفـرج الذي أمر في أول ربيع الأول ٨٠٨ هـ بعزله وتعيين سعد الدين مكانه ، بل أمر بالقبض عليه وتسليمه الى سعد الدين ليحاسبه على الأموال . واستمر فتح الدين تحت العقوبة في بيت سعد الدين حتى أفرج عنه في ١٨ ربيع الآخر على أن يحمل خمسمائة الف درهم ، عنها يوم ذاك ـ كما يقول ابن تغري بردي ـ ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثون مثقالاً ذهباً وثلث مثقال[2] .

١٧ ـ وأما خلفه سعد الدين ابراهيم بن غراب (١ ربيع الأول ٨٠٨ هـ ـ ١٩ رمضان ٨٠٨ هـ) فقد تحقق لكتابة السِّر على يديه من علوّ الرتبة والمكانة اكثر مما تحقق على يد فتح الدين . وكان سعد الدين بحكم نشأتـه وبحكم حياته الوظيفية بعيداً كل البعد عن الكفاءة الأدبية التي يجب ان تتوفر فيمن يعين كاتباً للسِّر . فهو ينتمي الى أسرة قبطية حديثة العهد بالاسلام ، كان أول من أسلم منها جده غراب الذي تولى بعد اسلامه نظر ثغر الاسكندرية ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الرزّاق في هذه الوظيفـة . وترك عبد الرزّاق ولدين أحدهما سعد الدين الذي بدأ حياته كاتباً للأموال لدى جمال الدين محمود استادار الظاهر برقوق .

واستطاع سعد الدين بما فطر عليه من خِسّة الطبع والاساءة الى اليد التي تحسن اليه ، وبما فطر عليه من دهاء أن يعرف أقصر الطرق في هذه الفترة الى قلوب السلاطين والى خزائنهم ، فنجح وهو لم يزل في سن العشرين في أن يتقرب الى الظاهر برقوق ثم الى ابنه الناصر فرج ، وأن يصعد طريق الوظائف الكبرى في الدولة وأن يجمع بين معظمها . فجمع بين نظر ديوان المفرد ، ونظر ديوان الخواصّ الشريفة ، ونظر ديوان الجيش ، وفي بعض الأوقـات الوزارة[3] ، ثم استقل بكتابة السِّر آخر الأمر .

وفي أثناء ولايته لكتابة السِّر لعب سعد الدين دوراً بارزاً في الأحداث التي أدت الى خروج الأمراء على الناصر فرج واجباره على الفرار، وفي تولية أخيه الملك المنصور عبد العزيز العرش مكانه مدة سبعين يوما عاد بعدها الناصر

---

(١) انظر مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتّاب السِّر والقضاة ، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد ٣ ، ص ٢٦٦

(٢)النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ١٦٧ .

(٣) كان الجهاز الاداري في الدولة المملوكية يتكون من خمسة دواوين وهي : ديوان الوزارة ، وديوان الانشاء، وديـوان الجيش ، وديوان المفرد ، وديوان الخواصّ الشريفة (عن هذه الدواوين انظر صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢)

فرج الى عرش السلطنة بفضل معونته وحسن تدبيره وكافأه الناصر فرج على ذلك بأن جعله مشير الدولة وخلع عليه خلعة الأمراء بطراز ذهب . ولما تحققت لسعد الدين هذه المكانة العليا في الدولة استصغر كتابة السِّر فأناب عنه غلامه فخر الدين ماجد بن المزوّق في القيام بشئونها . ولما أدركته الوفاة في ١٩ رمضان ٨٠٨ هـ لم يكن قد تجاوز الثلاثين عاماً الا بقليل[١] .

١٨ ـ وبعد وفاة سعد الدين خلفه فخر الدين ماجد بن المزوّق في كتابة السرِّ (١٩ رمضان ٨٠٨ ـ ٧ ذي الحجة ٨٠٨ هـ) وكان فخر الدين غلاماً لسعد الدين ، ولما وثق منه سعد الدين جعله كاتباً في امواله . وهو مثله من عائلة قبطية حديثة العهد بالاسلام وهو مثله ايضا يفتقد الى الكفاءة الأدبية . والى سعد الدين يرجع الفضل في رفعه الى تولي الوظائف العليا في الدولة ، فبفضل نفوذه تولى فخر الدين نظر الجيش عندما خلت هذه الوظيفة بتولي سعد الدين كتابة السِّر . كما كان فخر الدين يقوم بنيابة كتابة السِّر خلال الفترة القصيرة التي تولاها فيها سعد الدين ولما مات سعد الدين عيّن فخر الدين في كتابة السِّر لأن مهابة سعد الدين كانت على رأي المقريزي لا تزال في النفوس .وأخيرا ليس لدينا ما ينفي أنه عرف الطريق لتولي الوظائف في ذلك الوقت شأنه في ذلك شأن استاذه[٢] .

١٩ ـ وفي ٨ ذي الحجة ٨٠٨ هـ نجح فتح الدين بن فتح الله بفضل سعاية أقوى الأمراء نفوذاً وقتذاك ،وهو الاستادار ـ الكبير جمال الدين يوسف البيري ، في أن يعود الى كتابة السِّر . وليس ثمة شك في أنه لم يعد اليها الا بعد أن بذل مالاً كثيراً للناصر فرج ولغيره. وفي ولايته الثانية هذه زادتمكنه من الناصر فرج حتى أصبح على قول المقريزي ، [عظيم المصر ، نافذ الأمر ، قائماً بتدبير الدولة ، لا يجد أحد من عظماء الدولة بدّاً من حسن سفارته ،وأبدى للناس ديناً وخيراً وتواضعاً وحُسْن وساطة بين الناس والسلطان][٣] .

وفي أواخر هذه الولاية الثانية قام فتح الدين ابن فتح الله بدور رئيسي في خلع الناصر فرج من عرش السلطنة وقتله ، ثم تولية الخليفة المستعين بالله عرش السلطنة. غير أن دوره هذا أدى الى نقمة الأمير شيخ عليه . فلما استبد الأمير شيخ بالأمور دون الخليفة . ثم خلعه وتولى السلطنة مكانه أمر بالقبض عليه ومعاقبته على الأموال . ولما احتاط على جميع موجوده من صامت وناطق ـ كما يقول المعاصرون ـ أمر بخنقه في ليلة الأحد ١٥ ربيع الثاني ٨١٦ هـ[٤] .

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ WEIT: Op. Cit., No VIII, p. 7- 8

(٢) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ ـ .WEIT: Op. Cit No IX, p. 13 - 14

(٣) الخطط ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) المقريزي : الخطط، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ٢٢٤ ، ٤٠٣ ، ٤٢٠ ـ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ ، ٢٥٧ ، وما يليها ، ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ، ٣٠١ ، ٣٥٥ ـ ٣٥٨ ـ السخاوي : الضوء اللامع ج ١ ، رقم ٥٦٤ . ـ ابن حجر : انباء الغمر بأنباء العمر ،تحقيق حسن حبش ، ج ٣ ، ص ٨ ، ٢٩ ـ ٣٠ WEIT: Op Cit., No X, p. 14 - 16 _

وعلى الرغم من أن فتح الدين بن فتح الله قد أثبت مهارة سياسية فائقة ومقدرة ادارية كبيرة في تصريف شئون كتابة السِّر في ولايته الأولى والثانية لها الا أنه كان يفتقر الى الكفاءة الأدبية . فالمقريزي على الرغم من صلته الطيبة به[١] ، وعلى الرغم من حسن رأيه فيه ـ وهو ما سبق أن أوردته ـ ، يقرر أنه منذ ولايته الاولى لكتابة السِّر أصبحت المهمات السلطانية يكتبها الموقِّعون بالديوان حسب النماذج المقررة بعد أن يصدر كاتب السرِّ الاذن بذلك[٢] . وسنرى في دراستنا لبقية تراجم كتّاب السِّر في الفترة التالية من عصر المماليك الجراكسة أن شرط الكفاءة الأدبية قد توارى بالنسبة لمعظمهم لتصبح الصدارة لمن يبذل المال اكثر من غيره في سبيل الفوز بهذه الوظيفة الكبرى التي أصبح شاغلها الرجل الأول في الدولة بعد السلطان ولمن يهبه الله الكفاءة السياسية والادارية والخبرة بطبائع السلاطين والقدرة على مسايرة نزواتهم ومغالبة نوازل الأيام وخطوب الزمان . وهذه الظاهرة انما كانت تتمشى مع الظاهرة العامة التي غلبت على عصر المماليك الجراكسة منذ بداية القرن التاسع الهجري والتي تتمثل في الاضطراب السياسي وسوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية . وكلما أوغلنا في هذاالعصر واقتربنا من نهايته كلما زادت حدة هذه الظاهرة وبالتالي ازداد تفشي الرشوة والبذل في طلب الوظائف بحيث أصبح ذلك هو القاعدة وما عداه هو الاستثناء [٣].

٢٠ ـ ولما قبض على فتح الدين بن فتح الله أمر المؤيد شيخ في ١٣ شوال ٨١٥ هـ أن يستقر محمد بن البارزي خلفاً له في كتابة السِّر . ومن المعروف ان الصلة الخاصة التي ربطت بين محمد بن البارزي وشيخ منذ أن كان أميراً بالشام هي التي رشحته في المقام الأول لتولي هذه الوظيفة الكبرى . غير أن محمد بن البارزي كان يتوفر فيه شرط الكفاءة الأدبية ، فقد شغل من قبل بحماه قضاء الشافعية وديوان المكاتبات لها ، كما شغل قضاء الشافعية بحلب عندما تولى شيخ نيابتها . وفي أثناء ولايته كتابة السِّر بالديار المصرية برزت مواهبه الأدبية كاتباً وخطيباً . فقد عرف عنه أنه كان يقوم بنفسه بإنشاء ما يصدر عنه من مكاتبات ديوان الانشاء ، وكان قد بطل عهد كتّاب السِّر بذلك منذ أمد بعيد ، وأنه في مجلس السلطان كان كثيراً ما يقوم خطيباً معبراً عن قصده بأفصح لسان[٤] . وهذه الموهبة الأدبية هي التي جعلت المؤيد شيخ يعينه خطيباً لجامعه وخازناً للكتب به . وفضلاً عن ذلك فقد عرف محمد بن البارزي بتشجيعه للأدباء ورعايتهم[٥] .

---

(١) عن الصلة الطيبة التي كانت تربط المقريزي بفتح الدين بن فتح الله انظر قبل ص ٢ .

(٢) السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٩ ، ٢٤٨

(٣) انظر مرسوم السلطان قايتباى الخاص بكتاب السّر والقضاة ، مجلة البحث العلمي الاسلامي ، العدد ٣ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٢

(٤) المقريزي : السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٤٨ ـ ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، ج ٢ ، ص ٦١٩ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .

(٥) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠
WEIT: Op Cit., No XI, p. 17 - 18 ـ



غير أن محمد بن البارزي كان يعيش في عصر شاعت فيه الرشوة ، بل أصبحت الوظائف كبيرها وصغيرها تشترى بالمال ، ولذلك لا ندهش اذا ما عرفنا الجانب المستتر من حياته . فعن هذا الجانب يقول السخاوي نقلاً عن شيخه ابن حجر ، [باشر كتابة السِّر بوجه طلق وجاه مبذول ، الا أنه في أواخر ايامه أفحش في الارتشاء على الوظائف] . ولا ندهش ايضا اذا ما عرفنا أنه على الرغم من الصلة الوثيقة التي تربط بينه وبين المؤيد شيخ ، وعلى الرغم من شدة اختصاصه بالسلطان لدرجة ان السلطان كان كثيراً ما يتردد لقضاء وقت راحته في قصره الذي بناه في جزيرة ممبابة(١) أمام بولاق ، فان المؤيد شيخ احتاط على معظم أمواله التي ظهرت بعد وفاته ، ويقدر ما أخذه المؤيد شيخ من تركته بما يقرب من مائة الف دينار(٢) .

٢١ ـ ولم يكتف المؤيد شيخ بما أخذه من تركة محمد بن البارزي وانما عمل على استخلاص بقية التركة التي آلت الى أبنائه . فقد قرر أن يخلفه في الوظيفة ابنه كمال الدين محمد بعد أن أخذ منه مبلغ أربعين الف دينار(٣) . وكان كمال الدين محمد يعمل نائباً لأبيه أثناء مباشرته لكتابة السرِّ واكتسب بعض الخبرة بشئون ديوان الانشاء .

غير أنه بعد فترة قصيرة عُزل كمال الدين محمد من كتابة السِّر بسبب وشاية زوج أخته علم الدين داود بن الكويز . وكان المؤيد شيخ قد توفي وآلت السلطنة الى ابنه الطفل المظفرّ أحمد ، وقام الأمير الكبير ططر بالوصاية عليه . ورأى ططر الفرصة سانحة لاستخلاص ما آل من بقية تركة محمد بن البارزي الى ابنته زوجة علم الدين داود بن الكويز . ففي **٢٦ محرم ٧٢٤ هـ** نقل ططر علم الدين داود بن الكويز من نظر الجيش الى كتابة السِّر ، ونقل كمال الدين الى نظر الجيش مكان زوج أخته . وكما يقول ابن تغري بردي فقد شقّ ذلك على اهل العلم والذوق(٤) .

٢٢ ـ وعلم الدين داود بن الكويز من مواليد الكرك أو الشوبك ، وينتمي الى أسرة يهودية(٥) ، أو على قول آخر الى اسرة مسيحية حديثة العهد بالاسلام ، فقد كان أبوه أول من اسلم من افرادها(٦) . وتولى علم الدين كتابة السرِّ في فترة حرجة من فترات الانتقال التي عرفتها الدولة المملوكية ، فقد شهد عهد المظفرّ احمد بن المؤيد شيخ ووصاية الأمير الكبير ططر

---

(١) هي التي تعرف الآن بالزمالك .

(٢) الضوء اللامع ، ج ٩ ، رقم ٣٥٠ ـ ابن حجر : انباء الغمر بـأبناء العمر ، نفس الطبعة ج ٣ ، ص ٢٢٣،٢٢٥ ـ المقريزي : السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٥ .

(٣) المقريزي : السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥٣٩ ـ ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر ، نفس الطبعة ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ ـ ابن حجر : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ WEIT: Op. Cit; No XII, p 18-19 ـ

(٥) المقريزي : السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٤٣ (من أصل يهودي)

(٦) المقريزي : المصدر السابق ، ص ٦٥٢ (يذكر ان اباه كان من كتاب الكرك النصارى)
WEIT: Op. Cit., No XIII, p 19- 20 ـ

عليه ، ثم عهد الظاهر ططر ، ثم عهد ابنه الطفل الصالح محمد ووصاية الأمير برسباي عليه ، وأخيراً بداية عهد الأشرف برسباي[1] .

وعلى الرغم من أن علم الدين لم يكن من رجال العلم والأدب ، بل لقد أخذت عليه بعض الأخطاء اللغوية وهو يقرأ القصص في مجلس السلطان ، فضلاً عن لكنة في لسانه ، فان المؤرخين يشهدون له بالكفاءة في مباشرة مهام وظيفته . فكما يقولون كان وقاره وحسن تدبيره وجودة رأيه يستران عواره وكانت أمور المملكة ـ طول هذه الفترة الحرجة ـ لم تكن تصدر الا عن رأيه وتدبيره[2] .

كما تمكن علم الدين من الأشرف برسباي في اوائل عهده بالسلطنة ولم يستطع الواشون أن ينالوا منه . ففي ربيع الأول ٨٢٦ هـ رفع شخص من أهالي الرملة بفلسطين في علم الدين قصة الى السلطان يتهمه فيها أنه تواطأ هو وجماعة من أهل الدلة على اعادة السلطنة الى المظفر احمد ابن المؤيد شيخ ، كما ذكروا في القصة أن كاتب السرِّ لا يصح أن يكون أسلمياً ، وإنما ينبغي ان يكون من اهل العلم والمعرفة . غير ان الاشرف برسباي لم يستمع الى هذه الوشاية على الرغم من أنه أخذ عليه خطأ ، في نطق بعض الكلمات في حضرته[3] . ولذلك كان نائبه بدر الدين محمد بن مزهر هو القائم بأمر المكاتبات بديوان الانشاء في ايامه ، وقد ظل بدر الدين يباشر نيابة كتابة السِّر مدة طويلة في عهد الأشرف برسباي حتى عين كاتباً للسرِّ[4] .

غير أن حياة علم الدين انتهت نهاية مؤلمة ، فابن حجر يذكر ان الأشرف برسباي دبر موته بالسمّ لكي يضع يده على ثروتهالكبيرة.. هذا وقد توفي علم الدين في آخر رمضان ٨٢٦ هـ وهو يباشر مهام وظيفته[5] .

٢٣ ـ وفي آخر رمضان ٨٢٦ هـ خلع على جمال الدين يوسف بن الصفّي الكركي في وظيفة كتابة السرِّ . ويتعجب المقريزي من تعيينه بعد ابن الكويز ؛ لأن ابن الكويز كان من أصل يهودي ، وابن الصفّي من أصل نصراني ، بل ان ابن الصفّي كان أول من اسلم من أسرته ، وكان حديث العهد بالاسلام عندما عُين كاتباً للسِّر . وكان ابن الصفّي قد قدم الى القاهرة في أواخر أيام مباشرة ابن الكويز لكتابة السِّر ، فلما مات ابن الكويز وعد بمال كبير نظير تعيينه خلفاً له ، فكانت ولايته ـ على رأي المعاصرين ـ أقبح حادثة رأوها .

وكما رُفعت في حق سلفه ابن الكويز قصة تعيب على السلطان تعيين أسلميّ في هذه الوظيفة الكبيرة ، رُفعت ايضاً في حق ابن الصفّي قصة مماثلة . ووجد السلطان في هذه

---

(١) انظر زامباور: معجم الأنساب والاسرات الحاكمة ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

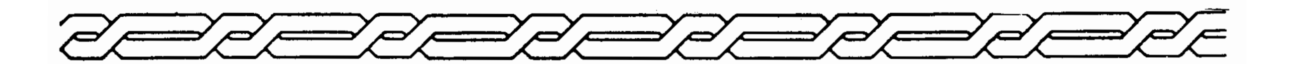
(٢) DARRAG, A: L'Egypte sous le règne de Barsbay, p-19

ـ ابن حجر : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ـ المقريزي : تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٥٢ .

(٣) ابن حجر : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ ـ المقريزي : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) انظر بعد رقم ٢٦ .

(٥) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠١



القصة مبرراً لعزله لكي يحصل على مبلغ مماثل ممّن يخلفه ، فعزله في ٩ ربيع الثاني ٨٢٧ هـ ، ولم يكـد يمضي على ولايتـه سـوى بضعـة اشهر(١) ، واذا كان الناس قد تعجبوا من تعيين ابن الصفّي على هذه الصورة الا انه عندما عزله السلطان كانوا له شاكرين(٢) .

٢٤ ـ وفي نفس اليوم الذي عزل فيه ابن الصفّي خُلع علىٰ شمس الدين محمد الهـروي واستقر كاتباً للسِّر بعد سعي شديد ووعد بمال كثير(٣) . والهروي من أصل هندي وكان قد استقر به المقام في القدس ، ثم جاء إلى القاهرة في الشهر السابق على تعيينه يسعى في رئاسة ديوان الانشاء . ولم يكن الهروي كفئا لتولي هذه الوظيفة ، إذ مـا لبث ان ظهر نقصه وعجزه وجهله في مباشرته لعملـه على الرغم من تعاظمه الزائد . فقد كان لا يحسن قـراءة القصص ولا الكتب الـواردة في حضـرة السلطان ، ولذلك كان نائبه بدر الدين محمد بن مزهر هو الذي يتولى القراءة نيابة عنه . ومن ثم فلم تطل ايام الهروي في كتابة السرِّ وعزل منها في ١١ جمادى الثانية ٨٢٧ هـ(٤) .

٢٥ ـ وفي ٢١ جمادى الثانية من نفس العام عين قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجيّ خلفاً للهروي بعد ان التزم بأن يدفع للسلطان عن ولايته كتابة السِّر مبلغ عشرة الاف دينار . وبالاضافة الى ذلك فقـد تسلم اقطاع ابن السلطان ليشرف عليه وعلى أن يقوم لديوان ابن السلطان في كل سنة بألف وخمسمائة دينار . وفي خلال العام الاول من مباشرته كان ابن حجيّ قد دفع الى خزانة السلطان خمسة الآف دينار على دفعات . فلما انقضى هذا العام طُلب منه حمل ما تأخر عليه وهو ستة الآف وخمسمائة دينار ، فسأل السلطان مشافهة أن ينعم عليه بالألف والخمسمائة دينار المقررة على اقطاع ابنه وتشكى من قلة متحصله ، فلم يجب السلطان سؤاله فنزل ابن حجيّ الى داره وكتب ورقة الى السلطان أنه قد غرم من حين ولي كتابة السِّر اثنـا عشر الف دينار ، منها خمسة آلاف الى خزانة السلطان ، ولمن لا يسمى مبلغ الفي دينار ، وللأمراء أربعة آلاف دينار ذكر بعض تفاصيلها .

فلما قرئت الورقة على السلطان فهم ان المقصود بمن لا يُسمى الأمير جانبك الأشرفي . وكان جانبك من مماليك السلطان ، وفي هذا العام كانت قد تزايدت عظمته بعد ان رقي أمير طبلخاناه وعُين دواداراً ثانياً واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في دولة أستاذه الاشرف برسباي(٥) . وعندما حضر جانبك

---

(١) السلوك : تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣ ـ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، رقم ١١٩٦

(٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٢٥ .

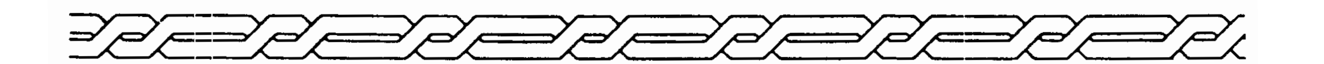
(٣) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٦٠

(٤) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٦٤ ـ ٦٦٥

ـ العيني : عقد الجمان ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس : القسم العربي ، رقم ١٥٤٤ ،ورقة ١٦١ ب

ـ WEIT: Op. Cit., No XV, pp. 22- 23

(٥) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٦٤ ، ٦٨٥ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٤ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ١٧ .



والأمراء الى القلعة أخذ السلطان يسألهم عما جاء في هذه الورقة ، فأجابوه بما لا يليق في حق كاتب السِّر ابن حجِّي ، كما حنق عليه جانبك . وما ان اجتمع ابن حجي مع جانبك في القلعة حتى جرت بينهما مناقشة حادة انتهت بالقبض عليه في ١٠ جمادى الثانية ٨٢٨ هـ ، ثم أُخرج من القاهرة مكبلاً في الحديد وحمل الى بلده دمشق ليكشف عن سيرته بها ويصادر ماله هناك(١) . وفي دمشق أفرج عنه بعد ان وعد بدفع مبلغ من الذهب . وهذا ويُروى عنه أنه باشر كتابة السِّر بغير خبرة بمصطلح الانشاء ، كما عرف بحدة الطبع والمبادرة الصعبة(٢) .

٢٦ ـ وفي ١٨ جمادى الثانية ٨٢٨ هـ استقر بدر الدين محمد بن احمد بن مزهر الدمشقي كاتباً للسِّر . وكان يلي نيابة كتابة السِّر منذ شهر شوال ٨٢٣ هـ ، ومن قبل كان يباشر بديوان الانشاء بدمشق عندما كان الأمير شيخ نائباً لدمشق . وهو أحد الدماشقة الذين جاءوا الى القاهرة بعد مجيء الأمير شيخ اليها واعتلائه عرش السلطنة . ومنذ أن عين ابن مزهر نائباً لكاتب السِّر كان هو الذي يقوم بأعمال ديوان الانشاء لان كل الذين ناب عنهم من كتّاب السِّر لم يكونوا على دراية بمصطلح الانشاء أو عرفوا بكفاءتهم الأدبية(٣) . ومع ذلك فإن كفاءته الأدبية لم تكن موضع اجماع المؤرخين ، فالسخاوي يجرده من ذلك ،كمايتهمه بالشره في جمع المال . وفي هذا يقول [أنه كان من الشره في جمع المال على حالة قبيحة ، لا يبالي ممّا أخذ ولا من اين يأخذ مع الشحّ والبعد عن جميع العلوم العقلية والنقلية](٤) .

واذا كان السخاوي يتحامل عليه في اتهامه بالجهل ، الا أنه يتفق مع غيره في اتهامه بجمع المال على هذه الصورة . فشيخه ابن حجر يذكر ان ابن مزهر ركزّ جهده في تحصيل المال لما عين كاتباً للسِّر وبالغ في ذلك لدرجة ان تركته قُدرته عند وفاته بمائتي الف دينار(٥) . وفضلا عن هذه التركة الكبيرة فليس ثمة شك في انه عرف كيف يرضي السلطان بالمال حتى لا يعزل من وظيفته ، فقد ظل يشغلها طوال اربع سنوات حتى ادركته الوفاة في أواخر جمادى الثانية ٨٣٢ هـ .

٢٧ ـ ولكي يكون للسلطان نصيب الأسد من هذه التركة الضخمة لابن مزهر فانه خلع في ٩ رجب على ابنه جلال الدين أحمد خلفاً له ـ

---

(١) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٨٦ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٣

ـ WEIT: Op. Cit, No XVI, pp. 23- 24 (ينقل فيت عن ابن تغري بردي سبباً آخر للقبض على ابن حجيّ . وهذا السبب هو ان ناظر الجيش وقتذاك استدعى باسم السلطان نائب الشام بكتاب منه ، وكان الأمر يقتضي ان يبلغ ناظر الجيش رغبة السلطان الى كاتب السرّ وهو الذي يتولى بعد ذلك أمر المكاتبة الى نائب الشام . وقد وجدابن حجيّ فيما قام به ناظر الجيش ـ وكان مختصاً بالسلطان ـ اعتداء على سلطته)

ـ العيني :عقد الجمان ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٦٥ ب ـ

(٢) ـ المقريزي: نفس المصدر والجزء ، ص ٦٨٧

(٣) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٤ .

(٤) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٨٦ ـ العيني : عقد الجمان ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٦٥ ب ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .

WIET: Op Cit.. No XVII, p. 24 ـ

(٥) الضوء اللامع ، ج ٩ ، رقم ١٠٨

(٦) إنباء الغمر، ج ٣ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢



وكان له من العمر نحواً من خمسة عشر سنة ـ ، مع الزامه بأن يحمل الى الخزانة السلطانية تسعين الف دينار أو مائة الف دينار على قول آخر . ونظراً لصغر سن جلال الدين وعدم قدرته على القيام بمهام الوظيفة ، فقد عين السلطان أحد موقِّعي الدّست وهو شرف الدين بن ابي بكر ابن سليمان الحلبي ، المعروف بابن الأشقر ، نائباً له . غير ان السلطان كان يفكر منذ اليوم الأول لولاية جلال الدين في البحث عن خلف له ، وما أن وقع اختياره على من يخلفه حتى قام بعزله في ١٥ ذي الحجة من نفس العام[١] .

٢٨ ـ وفي نفس اليوم خلع السلطان علي الشريف شهاب الدين احمد بن عدنان الدمشقي كاتباً للسِّر ، وقد ظل يباشر وظيفته حتى مات في شعبان ٨٣٣ هـ بسبب الوباء الذي اجتاح البلاد في هذه السنة . وكان قبل قدومه الى القاهرة يجمع في دمشق بين عدة وظائف وهي : كتابة السِّر ، وقضاء الشافعية ، ونظر الجيش ، ونقابة الأشراف[٢] .

ولا تشير المصادر الى توليته كتابة السِّر بالديار المصرية عن طريق البذل . غير اننا نعرف من تاريخه السابق وهو بدمشق أنه كان قد عرف هذا الطريق على الرغم مما اشتهر به من تقوى . ويبدو ان الناس قد تعارفوا في ذلك الزمن على ان هذا الطريق هو الطريق الطبيعي لتولي الوظائف . فنحن نعرف لم ينجح في تولي قضاء الشافعية بدمشق في شهر محرم ٨٣٠ هـ لأن المبلغ الذي التزم بدفعه ـ وهو الف دينار ـ ، كان يقل كثيراً عما التزم منافسه بدفعه ، وهو سبعة وعشرون الف دينار . غير ان شهاب الدين لم يستسلم لهذه المنافسة ، وظل يسعى لدى السلطان حتى نجح آخر الامر في اغرائه بمبلغ كبير من المال ثمناً لهذه الوظيفة المتنازع عليها[٣] .

وبعد وفاته اختار السلطان أخاه عماد الدين خلفاً له ، غير أنه مات بدوره بالوباء قبل ان يباشر مهام الوظيفة . ومن ثمّ كلف السلطان نائب كاتب السِّر شرف الدين بن الأشقر بالقيام بكتابة السِّر حتى يستقر الأمر على تعيين أحد فيها[٤] .

٢٩ ـ وفي رمضان ٨٣٣ هـ استدعى السلطان الى القاهرة شهاب الدين أحمد بن صالح السفّاح الذي كان يتولى ديوان الانشاء بحلب ليستقر في كتابة السِّر بالديار المصرية ، كما قرر السلطان في وظيفته بحلب ابنه زين الدين عمر ، وذلك على أن يحمل للسلطان عشرة الاف دينار[٥] . وعلى الرغم من ان السفّاح كان قد قضى من مباشرة ديوان الانشاء بحلب عدة سنوات فانه لما باشر كتابة السِّر

---

(١) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٠٠ ، ٨١٠ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ ، ٤٣٢ ـ
WIET: Op. Cit., No XIII, p. 24 - 25
ـ عن شرف الدين بن الأشقر انظر بعد ترجمة حياته وحياة ابنه محب الدين محمد رقم ٣٢ .

(٢) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٠٩ ، ٨١٠ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ـ ٤٤٢

(٣) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٣٤ ، ٧٣٥ ـ ٧٣٦ ، ٨٣٣ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ص ٤٤٠ .

(٤) WIET: Op. Cit; No XIX, pp. 25 - 26

(٥) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٣٣ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .



بالقاهرة ظهر عجزه وقلة علمه وخشونة طبعه ، ولذلك كان السلطان غير حفيّ به . ولشعور ابن السفاح بعدم رضاء السلطان عليه فإنه ظل يواصل بذل المال له عسى ان يشفع له ذلك لديه ، غير ان السلطان كان يزداد له مقتاً . وفي يوم من الأيام أزعجه السلطان بشيء هدده به فصعب عليه من الرعب ، ثم ما لبث ان مات بسبب ذلك في رمضان ٨٣٥ هـ(١) .

وعلى الرغم من أن ابن السفاح تولى كتابة السِّر بالديار المصرية عن طريق بذل المال وأنه ظل يواصل بذل المال للسلطان لكي يرضى عنه فانه أبدى في فترة مباشرته لهذه الوظيفة ، وكذلك ابن زين الدين عمر الذي خلفه في ديوان الانشاء بحلب ، شعور العطف نحو اهالي حلب ، وذلك برفع بعض ما كانوا يتعرضون له من مظالم وقتذاك (٢) .

٣٠ ـ وفي شوال ٨٣٥ هـ عُين كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ كاتباً للسرِّ . وكان السلطان قد استدعى من قبل قاضي قضاة دمشق شهاب الدين احمد بن الكشك ليتولى كتابة السِّر بالقاهرة عوضاً عن ابن السفّاح بعد موته على ان يحمل معه عشرة آلاف دينار . غير ان ابن الكشك اعتذر بكبر سنه وضعف بصره ، ولكي يتجنب غضب السلطان عليه فانه اشفع اعتذاره هذا بحمل خمسة آلاف دينار الى السلطان لكي يعفيه من هذا الاستدعاء(٢) .

ولذلك استدعى السلطان كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ وخلع عليه في كتابة السِّر مع استمراره في مباشرة الوزارة التي كان يتولاها منذ سنة ٨٢٦ هـ . هذا ولم يحدث انه اجتمعت الوظيفتان لأحد قبله في الدولة المملوكية . وكريم الدين من عائلة مسيحية حديثة العهد بالاسلام ، ويُعتبر هو وأبوه مثالاً لرجل العصر الذي يعرف كيف يرضي أولي الأمر بمداومة بذل الأموال لهم ، ويعرف في نفس الوقت كيف يعوض ذلك أضعافاً مضاعفة من أموال المسلمين . وهذا هو سر احتفاظه بالوزارة هذه المدة الطويلة .

وأما في كتابة السِّر فقد كان كريم الدين بعيداً كل البعد عن صناعة الانشاء . كما كان قليل الدراية بقراءة القصص على السلطان. هذا فضلاً عن أنه كان أعشى ، ولذلك فانه كان عند قراءته للقصص يقربهما للغاية من عينيه ، الأمر الذي كان يجعله على هيئة غير مستحبة وهو في مجلس السلطان . كما أوقعه ذلك في كثير من

(١) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٧٧ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٧٦ ـ ٤٨٢ ـ ٤٨٣
ـ WIET: Op. Cit; No XX, p. 26

لقد وصل الينا مرسوم يرجع الى عهد السلطان برسباي يقضي بابطال المكوس بأريحا عند حلب .
ـ وقف المدرسة المؤيدية بالقاهرة ، وكان الساعي في ذلك ابن السفّاح (انظر : SAUVAGET: Decrets Mamlouks, dans B. E. O, XII, p. 42, No 53)

وفي سنة ٨٤٦ هـ اصدر ابنه زين الدين عمر صاحب ديوان الانشاء بحلب قراراً بابطال بعض ما كان يتقاضاه صاحب ديوان الانشاء بحلب من موجب على ما يجلبه نصارى مدينة قارا الى حلب (انظر الطبّاخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ ـ SAUVAGET: Op. Cit, dans B.E.O, III, p. 16 No 30)

(٢) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٨٧٠ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٧٦ ، ٤٩٠

الأخطاء أثناء القراءة . ومن ثم فإنه كثيرا ما كان يتجنب هذه المواقف ويترك قراءة القصص لنائبه مشرف الدين بن الأشقر .

ويعلق المقريزي على ذلك بقوله: إن الكفاءة أصبحت غير معتبرة في زمانه بحيث ان بعض السوقة تولى صحابة ديوان المكاتبات بحماة على مال قام به وهو لا يحسن القراءة والكتابة . ولذلك كان يكلف واحداً اختص به ليقرأ له القصص والمطالعات في بيته ثم بعد ذلك يقوم بقراءتها في مجلس نائب حماه[١] .

ومع ذلك فان الوزير كريم الدين أعاد لكتابة السِّر بعض ما كان في رسومها لوفور حرمته واستبداده . الا ان كريم الدين سرعان ما صرف من كتابة السِّر في ٢٧ محرم ٨٣٦ هـ[٢] .

٣١ ـ وفي اليوم الذي صرف فيه كريم الدين رُسم لشرف الدين بن الأشقر نائب كاتب السِّر بمباشرة كتابة السِّر حتى يحضر كمال الدين محمد بن البارزي من دمشق ، وكان يتولى بها قضاء الشافعية وكتابة السِّر .

وفي ١٩ ربيع الأول حضر كمال الدين محمد ابن البارزي الى القاهرة. وفي اليوم التالي لوصوله اليها خلع عليه خلعة كتابة السِّر ، غير أن قرار تعيينه بها لم يصدر الا في ٨ جمادى الأولى بعد ان حمل المال الذي قُرِّر عليه[٣] . وكان كمال الدين كفئاً لهذا المنصب الذي كان قد شغله من قبل عقب وفاة ابيه[٤] . كما عرف برعايته للأدباء والكتّاب ، ولذلك كان قدومه الى القاهرة مناسبة عبروا فيها عن حبهم وتقديرهم له . وقد ظل كمال الدين يباشر مهام الوظيفة حتى صرف منها في ٧ رجب ٨٣٩ هـ على الرغم من انه كان يباشرها على خير وجه . وربما كان ذلك ـ على رأي المعاصرين ـ من أجل البحث عن مرشح جديد يدفع للخزانة السلطانية ما تعودت ان تأخذه ممّن يعين كاتباً للسِّر[٥] .

٣٢ ـ ووقع اختيار السلطان ليخلفه في كتابة السِّر على محب الدين محمد بن شرف الدين بن الأشقر . وكان محب الدين محمد يشغل قبل ذلك مشيخة خانقاه سرياقوس[٦] ، فلما عين كاتباً للسِّر خلفه فيها ابنه شهاب الدين أحمد .

---

(١) السلوك : تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٨٧٠ ـ ٨٧١

(٢) السلوك : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٨١ ـ ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٠ ـ ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، تحقيق حسن حبش ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ .
WIET: Op. Cit., No XXI, pp. 26- 29 -

(٣) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ـ ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٤

(٤) انظر قبل ترجمة رقم ٢١

(٥) المقريزي : السلوك ، تحقيق عاشور ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٨٨١ ، ٨٨٦ ، ٩٧٠ ـ ابن داود الصيرفي : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٤ .
WIET: Op. Cit., No XXII, pp. 29- 30 -

(٦) هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها على نحو بريد منها ، انشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة ، وبنى بها حماما ومطبخا ، وقد كمل بناؤها سنة ٧٢٥ هـ . وقرر السلطان في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن احمد بن محمود الأقصرائي ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولكل من ولي بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ الا شيخ خانقاه سعيد السعداء . ثم رغب الناس في السكنى حول هذه الخانقاه وبنوا الدور والحوانيت والخانات حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣)

وهذا وتشير المصادر الى ان محب الدين محمد ، وكذلك ابنه شهاب الدين احمد ، قد تولى كل منهما وظيفته عن طريق بذل المال . وقد ظل محب الدين محمد يشغل وظيفة كتابة السِّر حتى صرف منها في ٢٢ ذي الحجة ٨٤٠ هـ .

وقد أفاضت المصادر في الحديث عن شرف الدين بن الأشقر في سياق الحديث عن ابنه محب الدين محمد . فتذكر لنا عنه أنه وهو يشغل نيابة كتابة السِّر في الديار المصرية صحب الأشرف برسباي في حملته الى آمد سنة ٨٣٦ هـ . وقبل ان يرحل الأشرف برسباي من آمد عائداً الى مصر أصدر قراراً بتعيينه كاتب الإنشاء بمدينة الرها . غير ان شرف الدين بن الأشقر نجح في الغاء ذلك القرار بعد أن دفع للسلطان مبلغ خمسمائة دينار . ومع ذلك ظل السلطان غاضباً عليه وكان لا يريده في مصر ، ولذلك أصدر في العام التالي قراراً بتعيينه صاحباً لديوان الانشاء بحلب ، وهدده بالموت ان لم يقبل هذه الوظيفة ، ولذلك اضطر شرف الدين بن الأشقر الى السفر الى حلب ، غير أنه بعد ان عمل فيها فترة قصيرة عرف كيف يرضي السلطان بالمال ويعود الى نيابة كتابة السِّر بالديار المصرية ، حيث ظل بها حتى وفاته في سنة ٨٣٨ هـ[١] .

٣٣ - وفي ٢٢ ذي الحجة ٨٤٠ هـ خلع الأشرف برسباي علي صلاح الدين محمد بن بدر الدين حسن في كتابة السِّر مضافاً لما بيده من حسبة القاهرة ، ونظر دار الضرب ، ونظر الأوقاف . وفضلاً عن ذلك فقد كان صلاح الدين محمد نديماً للسلطان .

وكان بعض الناس قد سعى بعد صرف محب الدين محمد بن الأشقر في كتابة السِّر بمال كبير ، غير أن رأي السلطان اقتضى ولاية صلاح الدين محمد . فعرض عليه ذلك وهو مقيم على عادته عنده في احدى الليالي ، فاستعفى صلاح الدين محمد من ذلك فلم يعفه السلطان وصمّم عليه وخلع عليه وأقرّه على ما بيده من وظائف ، كما استمر في منادمته والمبيت عنده .

ومما يذكر له أنه ترك لبس الأمراء ولبس العمامة المدوّرة والفرجيّة هيئة أرباب الأقلام ، فَسُرَّ الناس به . كما شُكرت خصاله اثناء مباشرته لكتابة السِّر ، ولم يسلك من الطمع وأخذ الأموال ما سلكه غيره ، بل عفّ وكفَّ عن ذلك .

كما باشر كتابة السِّر على أفضل وجه . فيروى عنه أنه صار يكتب المهمّات السلطانية بخطه بين يدي السلطان لما هو عليه من قوة الكتابة وجودتها ومعرفة المصطلح والدريّة بخدمة السلاطين وتدبير الدولة وفعالية الأحوال . ولذلك تميّز عمّن تقدمه من كتّاب السِّر بعد بدر الدين محمد بن فضل الله ، فانهم منذ عهد فتح الدين بن فتح الله صارت المهمّات

(١) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٧٠ - ابن حجر : نفس المصدر ، طبعة حكومة الهند ، ج ٨ ، ص ٣٨٤ - ابن داود الصيرفي : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٤ ، ٣٨٥

WIET: Op. Cit., No XXIV, p. 30 -

- وعن أبيه شرف الدين بن الأشقر نائب كاتب السِّر انظر قبل ترجمة رقم ٢٧ ، ٢٨



السلطانية انما يكتبها الموقّعون بالديوان بإملاء كاتب السرّ حتى باشرها هو فاستبد بكتابتها وحجب كل واحد عن الاطلاع على أحوال المملكة بحسن سياسته وتمام معرفته . وقد ظل صلاح الدين محمد يباشر مهام الوظيفة الى أن توفي بالطاعون في ٧ ذي القعدة أثناء الوباء الذي اجتاح البلاد في سنة ٨٤١ هـ[١] .

٣٤ - واستقر عوضه في كتابة السِّر في نفس اليوم أبوه بدر الدين حسن . وكان بدر الدين حسن قد بدأ يرقى سلّم الوظائف الديوانية الكبرى في الدولة المملوكية منذ سنة ٨٠٦ هـ ؛ فخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة تولى جميع هذه الوظائف ما عدا كتابة السِّر ، وتذوق أثناءها حلاوة الشهرة ومرارة الهبوط ، ومن خلال هذه الممارسة اكتسب خبرة كبيرة بخدمة السلاطين .

غير أن بدر الدين حسن لم يستمر في مباشرته لكتابة السِّر سوى بضعة أشهر ، فقد صرف منها في ١٤ ربيع الثاني ٨٤٢ هـ ، وكان الأشرف برسباي قد توفي وتمكن الأمير الكبير جقمق من خلع ابنه يوسف وتولي السلطنة مكانه[٢] .

٣٥ - ففي شهر ربيع الأول استدعى السلطان جقمق كمال الدين محمد بن البارزي قاضي قضاة الشافعية بدمشق ليستقر في كتابة السِّر بالديار المصرية ، ولما حضر الى القاهرة خلع عليه خلعة الوظيفة بعد صرف بدر الدين حسن منها في ١٤ ربيع الثاني ٨٤٢ هـ . وكان كمال الدين محمد يشغل وظيفة قاضي قضاة الشافعية بدمشق منذ أن صرف من كتابة السِّر بالديار المصرية للمرة الثانية في سنة ٨٣٩ هـ . وقد ظل يشغل كتابة السِّر حتى ادركته الوفاة في شهر ربيع الأول ٨٥٦ هـ ، وبذلك يكون قد باشر كتابة السِّر طوال عهد السلطان جقمق على وجه التقريب[٣] . وهذا يرجع في المقام الأول الى ان السلطان جقمق كان زوجاً لابنته . فضلا عما عرف به من تقوى وورع[٤] .

٣٦ - وخلفه في كتابة السِّر محب الدين محمد بن شرف الدين بن الأشقر ، وكان قد سبق له أيضاً أن خلف كمال الدين محمد بن البارزي في هذه الوظيفة بعد أن صرف عن ولايته الثانية لها . ولم يستمر محب الدين محمد في ولايته الثانية لكتابة السِّر طويلاً ، اذ صرف منها في ٣ ذي القعدة ٨٥٧ هـ في أوائل عهد السلطان الأشرف إينال . هذا وقد قدّر له أن يتولاها مرة ثالثة[٥] .

٣٧ - وفي نفس اليوم استقر مكانه محمد بن

---

(١) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠١١ - ١٠١٢ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٦ - ابن داود الصيرفي : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٨٤ - ٣٨٦ ، ٤١٧
- WIET: Op. Cit., No XXIV, pp. 30-31

(٢) المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ق ٢ ، ص ١٠٤٦ ، ق ٣ ، ص ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ - ابن داود الصيرفي : نفس المصدر والجزء ص ٤١٧
- WIET: Op. cit, No XXVI, p. 33

(٣) توفي السلطان جقمق في شهر محرم ٨٥٧ هـ

(٤) المقريزي : نفس المصدر ، ج ٤ ، ق ٣ ، ص ١٠٨٤ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨
- وعن تقوى جقمق وورعه انظر فيما بعد (نهاية البحث)

(٥) WIET: Op. Cit., NO XXVII, p. 34



الشِحنة بعد ان سعى فيها بمال كثير[١] . وتاريخ ابن الشحنة يعطينا صورة واضحة عن طبيعة ذلك العهد وكيف أصبحت جميع الوظائف تشترى بالمال . فقد تولى ابن الشحنة عدة وظائف بحلب مسقط رأسه وبالقاهرة . وكان بذل المال طريقه اليها جميعها ، ولذلك عرف بسوء السيرة أثناء مباشرته لجميع هذه الوظائف .

ففي شهر ربيع الأول ٨٤٦ هـ عزل من وظيفة قاضي قضاة الحنفية بحلب لسوء سيرته ، غير أنه في شهر ذي القعدة ٨٤٨ هـ لم ينجح في العودة الى هذه الوظيفة فحسب ، وانما جمع بينها وبين وظيفتي ناظر الحسبة وصحابة ديوان الانشاء بحلب بعد ان بذل عشرة آلاف دينار[٢] . وبعد سنتين نجح في ان يضيف الى هذه الوظائف الثلاث النظر على قلعة حلب ، والنظر على الجامع النوري بها ، وكل ذلك بالبذل[٣] .

غير أن سيرته ساءت في مباشرة هذه الوظائف الخمس وكثرت الشكوى في حقه ، الأمر الذي أدى الى استدعاء السلطان جقمق له . وفي القاهرة احتجز عدة اشهر للتحقيق معه ، وانتهى أمره بأن أُخرجت عنه وظيفتا صحابة ديوان الانشاء والحسبة بحلب ، كما أخذت منه جُمل مستكثرة من الأموال، وبعد أن قاسى ألواناً من الشدائد سُمح له في ٨ رمضان ٨٥٦ هـ بالسفر الى حلب والاحتفاظ فقط بوظيفة قاضي قضاة الحنفية بها[٤] . الا أنه سرعان ما عزل عن هذه الوظيفة ايضاً في ١٦ ذي الحجة من نفس العام ورُسم بمحاسبته على الأموال[٥] . وبعد التحقيق معه ثبت عليه في محضر شرعي مبلغ ستين الف دينار مما تناوله أيام ولايته من ريع الأوقاف التي تحت نظره وغيرها بطريق غير شرعي[٦] .

وعلى الرغم مما تعرض له من اهانة شديدة فإنه لم يزدد الا حرصا في السعي والتردد الى الأكابر وبذل الأموال لهم الى أن نجح في العودة الى قضاء حلب بعد ان بذل للسلطان الأشرف إينال عشرة آلاف دينار [٧] ثم تزايدت الشكوى من سوء سيرته أكثر من ذي قبل ، مما أدى الى استدعاء السلطان له . غير أنه وهو في طريقه الى القاهرة كان قد مهد الطريق لكي يرضى عنه السلطان ، فوعد بمال كثير . ولما خبر السلطان عن قرب . . وكان في بداية عهده بالسلطنة ـ ، سعى لديه في كتابة السِّر بالديار المصرية ، فاستقر بها عوضا عن محب الدين محمد بن الأشقر في ٣ ذي القعدة ٨٥٧ هـ [٨] . الا انه سرعان ما عزل منها في شهر جمادى الثانية من

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٣٨ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٤٤ .
(٢) ابن تغري بردي : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ١٢٣ ـ السخاوي : التبر المسبوك ، ص ١٠٠
(٣) السخاوي : التبر المسبوك ، ص ١٤٥
(٤) ابن تغري بردي : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ١٤٠
(٥) نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٢٣٤
(٦) ابن تغري بردي : حوادث الدهور ، ص ١٦٨
(٧) المصدر السابق ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨
(٨) ابن اياس : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٤٤



السنة التالية [1] .

٣٨ ـ وكان محب الدين محمد بن الأشقر ، الذي خلفه محمد بن الشحنة في كتابة السِّر ، يتطلع الى العودة اليها ، وقد نجح بعد عزل محمد بن الشحنة منها في العودة اليها للمرة الثالثة ببذل المال ، وظل بها حتى توفي في شهر رجب ٨٦٣ هـ[2] .

وممّن اشتغل من اخوته بصناعة الانشاء أخوه معين الدين عبد اللطيف الذي شغل في بداية أمره صحابة ديوان الانشاء بحلب ثم انتقل منها في سنة ٨٤٤ هـ الى نيابة كتابة السِّر بالديار المصرية[3] . وقد جاء ذكره سنة ٨٦١ هـ وهو يشغل هذه الوظيفة[4] ، ومعنى ذلك أنه باشرها أثناء ولاية أخيه محب الدين محمد الثانية والثالثة لكتابة السِّر[5] .

٣٩ ـ وظل محمد بن الشحنة يترقب الفرصة للعودة الى كتابة السِّر بالديار المصرية الى أن واتته هذه الفرصة بوفاة محب الدين محمد بن الأشقر . وفي هذه الولاية الثانية لها طالت ايامه في كتابة السِّر حتى صرف منهـا في ٢١ شوال ٨٦٦ هـ . وكان في ولايته الثانية هذه قد عين حفيده لسان الدين نائباً له ، فلما عزل منها عزل معه حفيده واستقر خلفاً له القاضي نور الدين الأنبابي الذي كـان وقتـذاك رأس مـوقعي الدّست[6] .

غير أنه نجح بعد ذلك في أن يتولى قضاء قضاء الحنفية بالديار المصرية بعد ان بذل في ذلك مالاً كثيراً . ولما سعى في الوظيفة مرشح آخر كان اكثر بذلاً منه عُزل منها في شهر رجب ٨٦٧ هـ ، ولكن ليعود اليها مرة ثانية في محرم من السنة التالية بعد وفاة من كان يشغلها . ثم عزل منها في جمادى الآخرة ليعود اليها ويُعزل منها مرة أخرى في العام التالي . وفي محرم ٨٧٠ هـ عاد اليها واستقر بها بضع سنوات الى أن عزل منها في ٨٧٧ هـ وتقرر محاسبته على أموال الأوقاف التي تحت نظره . ولم يكن هذا آخر عهده بالوظائف ، فقد استطاع أن يتولى مشيخة خانقاه شيخو[7] التي ظل يشغلها الى ان توفي في سنة ٨٩٠ هـ . ولعل أهم ما ينسب اليه اشتغاله بكتابة تاريخ حلب كما فعل أبوه من قبل[8] .

٤٠ ـ ولما عُزل محمد بن الشحنة من كتابة

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٤٣

WIET: Op. Cit., No XXVIII, p. 34 ـ

(٢) WIET: Op. Cit., No XXIX, P. 34

(٣) WIET: Les biographies du Manhal Safi, No 1466

(٤) ابن تغري بردي : حوادث الدهور ، ص ٢٨٢ ـ الخالدي : المقصد الرفيع ، ورقة ١١٧ أ ، ب

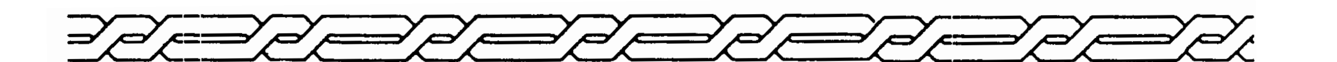
(٥) عن ولايته الثانية انظر قبل رقم ٣٦

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٧٠٩ ـ ٧١٠

(٧) هذه الخانقاه في خط الصليبة خارج القاهرة (زمن المقريزي) تجاه جامع شيخو ، انشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمريّ في سنة ٧٥٦ هـ ، ورتب بها دروساً عدة منها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ، ودرساً للحديث النبوي ، ودرساً لاقراء القرآن بالروايات السبع ، وجعل لكل درس مدرساً وعدة جماعة من الطلبة . وقد عظم قدر هذه الخانقاه واشتهر في الأقطار ذكرها ، وتخرج بها كثير من اهل العلم . وكانـت مشيخة الخانقاه والنظر في اوقافها لمدرس الحنفية (المقريزي : الخطط ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٤٢١)

(٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٧١٠ ، ٧١٥ ، ٧٢١ ، ٧٣٨ ، ٧٤٢

WIET: Op. Cit., No XXX, pp. 35- 36 ـ



السِّر في **٢١** شوال **٨٦٦** هـ خلفه فيها برهان الدين ابراهيم بن الديري الذي كان قد سعى فيها بخمسة الآف دينار[١] . غير انه لم يلبث ان عزل منها بعد مباشرته لها بخمسة عشر يوما ، إذ تشاءم السلطان من رواية رواها له لما ماتت احدى زوجاته في يوم السبت . فقد قال ، نقلاً عن السلف ، أنه ما خرج من بيتٍ ميتٌ في يوم سبت الا وتبعه اثنان من أكابر ذلك الميت[٢] . ولما عزل ابن الديري من كتابة السِّر أخذ ينافس ابن الشحنة في قضاء الحنفية . وقد ظل الاثنان يتناوبان هذه الوظيفة فترة من الزمن[٣] .

٤١ ـ وفي **٦** ذي القعدة **٨٦٦** هـ خلف ابن الديري في كتابة السِّر أبو بكر محمد بن بدر الدين محمد بن احمد بن مزهر الدمشقي . وكان ابوه بدر الدين محمد قد تولى نيابة كتابة السرِّ ثم كتابة السِّر في عهد الأشرف برسباي ، كما تولى أخوه جلال الدين احمد كتابة السِّر خلفاً لأبيه . وقد استمر أبو بكر محمد يباشر كتابة السِّر الى أن توفي في **٣** رمضان **٨٩٣** هـ ، وذلك ما عدا فترة قصيرة في سنة **٨٨٦** هـ .

وبسفارة أبي بكر محمد بن مزهر أصدر السلطان قايتباي في شهر شوال **٨٧٤** هـ مرسومه الى كفّال الممالك الاسلامية (أي نواب النيابات في الدولة المملوكية) وقضاة قضاتها من ذوي المذاهب الأربعة بابطال ما كان يتخذه كتّاب السِّر بالديار المصرية على مناصب الحكم والقضاء وعزل من يرتشي من القضاة على شيء من الأحكام الشرعية . وفي دراستنا لهذا المرسوم تعرضنا بشيء من التفصيل لترجمة أبية بدر الدين محمد بن احمد بن مزهر ، ولترجمة ابن جلال الدين احمد بن بدر الدين محمد ، ثم لترجمة ابنه الثاني ابي بكر محمد بن بدر الدين محمد ، واخيراً لترجمة بدر الدين محمد بن أبي بكر محمد . وفي هذه التراجم عرفنا الشيء الكثير عن افراد هذه الأسرة الذين تولوا كتابة السِّر لمدة تزيد عن قرن من الزمان ، وكيف ان ولاياتهم لهذه الوظيفة اقترن ببذل الأموال والارتشاء ، وبجمع الثروات الضخمة[٤] .

٤٢ ـ وبعد وفاة أبي بكر محمد بن مزهر خلع الأشرف قايتباي في **١٦** رمضان **٨٩٣** هـ على ابنه بدر الدين محمد وقرره في كتابة السِّر ، وكان وقتذاك شابا في عشر الثلاثين . وكان قبل ذلك قد عرف طريق الوظائف الديوانية الكبرى بفضل مكانة ابيه ، فقد شغل وهو في سن السادسة عشر نظر ديوان الخواص الشريفة وبعد ذلك ببضع سنوات شغل حسبة القاهرة .

وقد امتدت سنوات مباشرته لكتابة السِّر لتشهد بقية سنوات سلطنة الأشرف قايتباي ، ثم

---

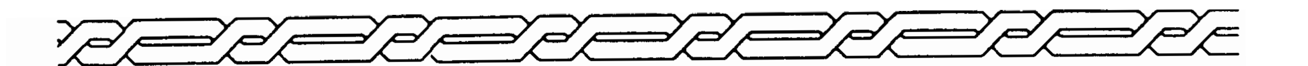
(١) ابن تغري بردي : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٧٠٩ ـ ٧١٠ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢) ابن تغري بردي : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٧١٠ ـ ٧١١ .

(٣) ابن تغري بردي : نفس المصدر والطبعة والجزء ، ص ٧٣٨ ، ٧٤٢

WIET: Les secretaires de la chancellerie, No XXXi, - p. 36- 37

(٤) انظر التراجم رقم ٢٦ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، وللمزيد من التفاصيل عن هذه التراجم انظر دراستنا عن مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتّاب السِّر والقضاة ، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ .



الفتـرة المضطربة التي أعقبت وفاته ، والتي تولى فيها عرش السلطنة الناصر محمد بن قايتباي ، والظاهر ابو سعيد قانصوه ـ وفي هذه الفترة المضطربة تعرض لمحنتين، الأولى في شهر رجب **٩٠٢** هـ على يد الناصر محمد بن قايتباي ، والثانية في شهر رجب **٩٠٥** هـ على يد الظاهر أبي سعيد قانصوة الذي أمر بالقبض عليه وبشنقه . غير ان شفاعة الدوادار الكبير الأمير طومان باي فيه حالت دون شنقه .

٤٣ ـ وكان السلطان الظاهر ابو سعيد قانصوه لما أمر بالقبض على بدر الدين محمد بن أبي بكر محمد بن مزهر عين أخاه كمال الدين محمد عوضا عنه في كتابة السِّر . غير ان أيام كمال الدين محمد لم تطل في كتابة السرّ فقد عاد اليها أخوه بدر الدين محمد في شهر ذي الحجة من نفس العام .

٤٤ ـ ففي هذا الشهر شاء حسن الطالع أن يتولى زوج أخته الأمير الكبير جان بلاط عرش السلطنة ، فأعاد بدر الدين محمد الى كتابة السِّر . غير أن السلطان جان بلاط ما لبث ان انقلب عليه في شهر ربيع الآخر سنة **٩٠٦** هـ عندما بلغه اشتداد بدر الدين محمد في مصادرة أموال الناس وكثرة دعاء الناس عليه ، فأمر بـالقبض عليه وبـرد كثير من الأمـوال الى أصحابها . وقد شاء له القدر أن ينجو أيضاً من هذه المحنة الثالثة ، فبعد شهرين خلع السلطان جان بلاط وتولى السلطنة بعده طومان باي الذي أفرج عنه .

٤٥ ـ وفي **١٢** ربيع الآخر **٩٠٦** هـ قرر السلطان جان بلاط في كتابة السِّر صلاح الدين ابن يحيـى بن شاكر بن الجيعان ، وكان يشغل نيابة كتابة السِّر منذ سنة **٨٩١** هـ . غير ان ابن الجيعان ما لبث أن استعفى من الوظيفة في **٣** رمضان من نفس العام[١] .

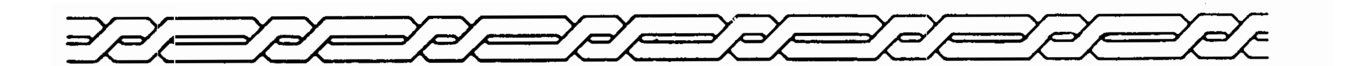
وصلاح الدين هو أحد أبناء آل الجيعان ، وهي أسرة مسيحية أسلمت في بداية القرن التاسع الهجري ولمع من افرادها كثيرون خدموا سلاطين الجراكسة على امتداد ذلك القرن وحتى سقوط الدولة المملوكية . ونخص بالذكر من هؤلاء ـ في مجالنا هذا ـ شهاب الدين احمد بن الجيعان الذي شغل نيابة كتابة السِّـر في الفترة الأخيرة من الدولة المملوكية ، وقدّر له ان يكون أول كاتب سرٍّ في بداية السيادة العثمانية على مصر[٢] .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ، ٣٥٤ ، ٣٨٦ ـ ٣٨٧ (نائب كاتب السِّر)، ص ٤٤٣ ، ٤٦٥ (كاتب السِّر) .

(٢) ومن آل الجيعان نخص بالذكر ايضا شرف الدين يحيى (٨٢٠ ـ ٨٨٥ هـ) الذي كان يتولى وظيفة مستوفى ديوان الجيش . وقد أتاحت له هذه الوظيفة ان يضع كتاب « التحفة السنية » بأسماء البلاد المصرية » ، وهي من أهم كتب الدول الخاصة بمصر الاسلامية . فهي تذكر لنا ـ حتى زمن المؤلف ـ عبرة كل قرية من القرى المصرية وتوزيع مساحتها ما بين ملكية خاصة أو اقطاع أو رزقة أو وقف ، أو غير ذلك . والكتاب مطبوع في القاهرة سنة ١٨٩٦ م .

ويخص بالذكر كذلك ابنه بدر الدين أبو البقاء محمد الذي وصف لنا الرحلة التي قام بها قايتباى الى سورية سنة ٨٨٢ هـ ، وكان مصاحباً له . وهي الرحلة التي سماها « القول المستطرف في سعي مولانا الملك الأشرف قايتباي» وقد طبعت في تورنتو سنة ١٨٧٨ م ، كما ترجمت الى اللغة الفرنسية . وتعتبر هذه الرحلة من أهم الكتب التي تصف لنا احوال بلاد الشام في اواخر القرن التاسع الهجري ، وعلى الأخص وصف القلاع وطرق البريد ومنازله .



٤٦ ـ وبعد ان استعفى صلاح الدين ابن الجيعان من كتابة السِّر خلع السلطان جان بلاط علي بدر الدين محمود بن أجا الحلبي وقرره خلفاً له . وكان بدر الدين محمود قد تولى قضاء الحنفية بحلب غير مرة فيما بين سنة ٨٩٠ هـ وسنة ٩٠٥ هـ(١) . وقد ظل يشغل كتابة السِّر الى ان أعفاه منها السلطان العثماني سليم الأول ، وبعد ذلك توجه الى حلب مسقط رأسه حيث وافته المنية في سنة ٩٢٥ هـ(٢) .

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا العرض لتراجم كتّاب السِّر في الدولة المملوكية أن عشرة منهم قد تولوا كتابة السِّر في عصر المماليك البحرية ، كان آخرهم بدر الدين محمد بن محيى الدين فضل الله الذي شهد انتقال السلطنة الى المماليك الجراكسة . وهو يعتبر أيضاً أول كتّاب السِّر في عصر المماليك الجراكسة الذين بلغ عددهم ستة وثلاثين كاتباً .

كما يتضح لنا أيضاً ان العشرة كتّاب السِّر الأوائل خدموا سلاطين المماليك البحرية في الفترة الممتدة من سنة ٦٤٨ هـ حتى سنة ٧٨٤ هـ أي مائة وستة وثلاثين عاما . بينما خدم الستة وثلاثون كاتباً للسِّر الذين خلفوهم سلاطين المماليك الجراكسة في الفترة الممتدة من سنة ٧٨٤ هـ حتى سنة ٩٢٢ هـ ، أي مائة وثمانية وثلاثين عاماً .

وتفسير هذه الظاهرة بالنسبة لعصر المماليك الجراكسة ، انما يرجع الى ما سبق ان ذكرناه عن سوء الحالة الاقتصادية واضطراب أحوال مصر والشام بسبب كثرة الفتن والثورات والحروب مع أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الهجري ، أي في عهد الظاهر برقوق ، وابنه الناصر فرج خاصة فقد خرّب الناصر فرج بسوء تدبيره جميع اراضي مصر والشام ، وكان ـ كما يصفه المؤرخون المعاصرون ـ أشأم ملوك الاسلام(٣) .

كما ازدادت الحالة الاقتصادية سوءاً على امتداد القرن التاسع الهجري ، فقد تحالفت الطبيعة مع مفاسد وعيوب النظام المملوكي في دفع البلاد نحو الهاوية الاقتصادية . فيتضح من قائمة انخفاض النيل في العصر المملوكي ، وما كان يترتب عليه من جدب وغلاء شديد أحياناً ، ومجاعة ووباء أحياناً أخرى ، انه قد تكرر حدوث انخفاض النيل في القرن التاسع اكثر من القرن الثامن . كما يتضح منها ان هذه الظاهرة قد تكرر حدوثها في فترات متقاربة خلال النصف الأول من القرن التاسع ، وترتب عليها أضرار كثيرة حاقت بالبلاد . فضلا عن الغلاء الشديد والمجاعة فقد تعرضت البلاد في هذه الفترة للوباء ست مرات .

ولكي تزداد الصورة وضوحا عن مدى سوى الحالة الاقتصادية في مصر في عصر المماليك الجراكسة خاصة أقدم الى القارىء هذه القائمة

(١) ابن اياس بدائع الزهور ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٤٦٥

(٢) WIET: Op. Cit., No XXXVII, p. 42- 43

(٣) عن هذه الفترة انظر :

ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفرنيا ، ج ٦ ، ص ٤٧ ، ٦٩ ـ ٧٢ ، ٢٥٧

ـ WIET: L'Egypte arabe, pp. 521- 524, 534- 540



من انخفاض فيضان النيل وما كان يترتب عليه ، ومن أوبئة كان يقف الطب حيالها عاجزاً في ذلك العصر (١) .

- سنة ٧٨٣ هـ/١٣٨١ م : وباء
- سنة ٧٩٦ - ٨٠١هـ/١٣٩٣ - ١٣٩٨م: فيضان منخفض ، جدب وغلاء شديد .
- سنة ٨٠٦ - ٨٠٩ هـ/١٤٠٣ - ١٤٠٧ م : فيضان منخفض ، مجاعة ووباء وفناء شديد .
- سنة ٨١٨ - ٨١٩ هـ /١٤١٥ - ١٤١٦ م : وباء
- سنة ٨٢٢ - ٨٢٣ هـ/١٤١٩ - ١٤٢٠ م : فيضان منخفض ، جدب وغلاء شديد ، وباء
- سنة ٨٣٠ هـ/١٤٢٧ م : فيضان منخفض ، جدب وغلاء شديد .
- سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٩ م : فيضان منخفض، جدب وغلاء شديد .
- سنة ٨٣٣ هـ/١٤٣٠ م : وباء .
- سنة ٨٤١ - ٨٤٢ هـ/١٤٣٧ - ١٤٣٨ م : وباء .
- سنة ٨٤٩ هـ /١٤٤٥ م : وباء
- سنة ٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م : فيضان منخفض ، جدب وغلاء شديد
- سنة ٨٦٣ هـ/١٤٥٩ م : وباء
- سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ - ١٤٦٩ م : فيضان منخفض ، جدب ، غلاء شديد
- سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٦ - ١٤٧٧ م : وباء
- سنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٧ م : فيضان منخفض ، جدب وغلاء شديد

وأمام هذا الوضع السيء الذي كانت تمر به البلاد منذ أواخر القرن الثامن الهجري أخذت الرشوة تتفشى في تولي الوظائف منذ عهد الظاهر برقوق ، ثم أصبحت الولايات والمناصب الديوانية والدينية بل وسائر الأعمال في عهد ابنه الناصر فرج تباع وتشترى ولا يمكن التوصل الى شيء منها الا بالمال الجزيل(٢) . وأخيراً أصبح تولي الوظائف جميعها نوعاً من الالتزام ، أي ان توليها ارتبط بدفع مبلغ من المال يزداد كلما ازدادت اهمية الوظيفة ورتبة متوليها ، ويزداد ايضاً كلما ازدادت الحالة الاقتصادية سوءاً حتى أفحش السلطان في طلب الأموال مقابل تولي الوظائف(٣) ، كما رأينا في معظم كتّاب السِّر زمن سلاطين المماليك الجراكسة .

وكما ذكرت في مقدمة هذا البحث فقد اختفى في عصر المماليك الجراكسة عنصر الكفاءة الأدبية الذي كان سلاطين المماليك البحرية يحرصون على توفره فيمن يتولى كتابة السِّر .

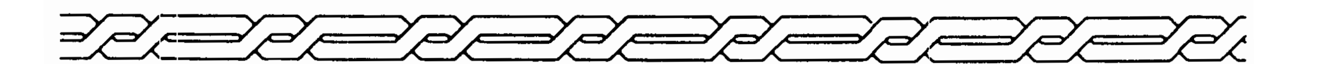
وثمة ملاحظة أخيرة عن كتاب السِّر في عصر المماليك الجراكسة وهي أن عهد الأشرف برسباي يتفرد بين عهود سلاطين الجراكسة

---

(١) WIET et HAUTECŒUR: Les Mosquées du Caire, I, P. 82

(٢) المقريزي : اغاثة الأمّة بكشف الغمّة ، تحقيق زيادة والشيّال، ص ٤١

(٣) انظر في هذا الصدد :
- DARRAG, A: L'Egypte sous le règne de Barsbay Chap. IV(La venalité des charges)
- احمد عبد الرازق : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٩ م



بظاهرة خاصة . ففي عهده الذي امتد ستة عشر عاما وشهراً بين (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) تولى من الستة والثلاثين كاتباً للسِّر ثلاثة عشر كاتباً[١] ، وهذا يرجع الى ازدياد سوء الحالة الاقتصادية للدولة في عهده ، فضلاً عما عرف به من جشع في جمع المال[٢] . كما ينفرد أيضاً عهد كل من الظاهر جقمق . والأشرف قايتباى بميزة خاصة تختلف كلية عن هذه الظاهرة التي انفرد بها عهد الاشرف برسباي . ففي عهد الظاهر جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ) تولى اثنان فقط من كتّاب السِّر[٣] ، وهذا يرجع الى ما عرف عنه من تقوى وطهارة اليد وتصديه لمحاربة الرشوة والفساد الذي عمّ الدولة . فيذكر التاريخ له تصديه لمحاسبة القضاء واشتداده في معاقبة المهملين والمرتشين منهم ، غير أن الداء كان قد استفحل واستعصى علاجه ، ولذلك فلم ينبه من ذلك سوى تشريع المعاصرين له[٤] .

وفي عهد الأشرف قايتباي (٨٧٣ ـ ٩٠١ هـ) تولى ايضا اثنان من كتّاب السِّر[٥] ، وهذا يرجع الى ان قايتباى كان رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى . واذا كان قايتباى بقوة شخصيته ، قد حقق بعض النجاح في التصدي لهذا الفساد الا ان عوامل الانهيار التي سرت في كيان الدولة كانت أقوى منه[٦] .

د . احمد دراج

---

(١) عن كتّاب السِّر في عهد برسباي انظر التراجم من رقم ٢٢ الى رقم ٣٤

(٢) انظر : DARRAG, A: Op..Cit., chap. III (La décadence économique)

(٣) عن كتّاب السِّر في عهد جقمق انظر الترجمة رقم ٣٥ و٣٦

(٤) انظر : ابن اياس : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٣٥

ـ ابن تغري بردي : حوادث الدهور ، ص ١٦ ـ ١٧ ، ٤٦ ، ٤٧

ـ السخاوي : التبر المسبوك ، ص ٢٦٣

ـ احمد دراج : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ، ص ٤٦ والحاشية رق ٨١

(٥) عن كتّاب السِّر في عهد قايتباى انظر الترجمة رقم ٤١ و٤٢

(٦) احمد دراج : مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتّاب السِّر والقضاة ، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي ، العدد الثالث ، ص ٢٧٤ وما يليها .



المراجع والمصادر

١ ـ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : طبعة دار الكتب ، وطبعة كاليفورنيا .
٢ ـ منتخبات من حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا .
٣ ـ ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، وطبعة حكومة الهند .
٤ ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، طبعة القاهرة .
٥ ـ ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشي ، طبعة دار الكتب .
٦ ـ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، طبعة بولاق .
٧ ـ ابن الجيعان (بدر الدين أبو البقاء محمد) : القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف قايتباي ، طبعة تورنتو ، ١٨٧٨ م .
٨ ـ ابن الجيعان (شرف الدين يحيى) : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، طبعة القاهرة .
٩ ـ ابن عبد الظاهر (محيي الدين) : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المؤيد المنصور ، تحقيق مراد كامل ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .
١٠ ـ ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، طبعة القاهرة ، ١٣١٤ هـ .
١١ ـ ابن فهد الحلبي : حسن التوسّل الى صناعة الترسّل ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ .
١٢ ـ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة بولاق ، وطبعة استانبول .
١٣ ـ بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي رقم ١٥٤٤ .
١٤ ـ احمد دراج : مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتّاب السِّر والقضاة والصادر في شهر شوال ٨٧٤ هـ ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، العدد الثالث ، ١٤٠٠ هـ .
١٥ ـ : الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ١٤ ، ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ م .
١٦ ـ : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ، القاهرة ١٩٦١ م .
١٧ ـ : ديوان الإنشاء ونظم العمل به في العصور الاسلامية (تحت الطبع) .
١٨ ـ أحمد عبدالرازق : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ـ دراسة عن الرشوة ، القاهرة ١٩٧٩م .

١٩ ـ الخالدي : المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا ، المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربي ، رقم ٤٤٣٩ .

٢٠ ـ السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة القاهرة .

٢١ : التبر المسبوك في الذيل على السلوك ، طبعة القاهرة .

٢٢ ـ السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة القاهرة .

٢٣ ـ الطبّاخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب ، ١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ م .

٢٤ ـ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب .

٢٥ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق .

٢٦ ـ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ٢ تحقيق الدكتور زياده ، ج ٣ ، ٤ تحقيق الدكتور عاشور .

٢٧ ـ : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق الدكتور زيادة والدكتور الشيّال .

٢٨ ـ خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، طبعة باريس .

٢٩ ـ BLOCHET: Histoire de L'Egypte de Makrizi, Paris 1904.

٣٠ ـ DARRAG, A: L'Egypte sous le règne de Barsbay, Damas 1961.

٣١ ـ SAUVAGET: Decrets mamlouks de Syrie, dans B.E.O.T.II.III.

٣٢ ـ WIET: Les secretaires de la chancellerie en Egypte sous les mamlouks circassiens, Paris 1932.

٣٣ ـ WIET: Les biographies du Manhal Safi, le Caire 1932.

٣٤ ـ L'Egypte Arabe, Paris 1937 .

٣٥ ـ WIET ET HAUTE CŒUR: LES Mosquées du Caire, T.I.Paris 1932.

